كتاب...أعراف البادية

كتاب

أعراف البادية

عارف عواد الهلال



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٠/٨/٣٠٩٤)

٣٩٤
الهلال، عارف عواد
أعراف البادية/ عارف عواد الهلال
عمان: المؤلف
(٢٠٥) ص.
ر.أ: (٢٠١٠/٨/٣٠٩٤).
الواصفات:/العادات والتقاليد/ البادية/ القبائل العربية

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى



مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع

الأردن – اربد

تلفاكس ٧٢٧٠١٠٠ ص. ب ١٢٨٤ الرمز البريدي ٢١١١٠
E. mail: hamada_company@hotmail.com
hamadacompany@yahoo.com



الإهداء

إلى رجال قضوا ولم يستبقوا خلفهم إلا الأخلاق الحميدة،

والصفات الجليلة، والقيم الحصيفة، والذكر الطيب

***

وإلى نساء مضين لم يحفلن ببهرج زائل،بل تشبثن وبكل قوة،

رغم شدة الفاقة بما هو أعز إلى النفس من أنفس النفائس

***

وإلى جيل لا يفتأ يستسقي هواطل المزن لأذكار الأولين،

على جهله بإرسال دلائها،

عسى أن يستقي من أخلاق الأولي صدروا عن الموارد

وأبقوا لنا الأرشاء

أهدي كتابي



بسم الله الرحمن الرحيم

الأخوان العزيزان، والصديقان الوفيان:

الأستاذ الروائي هاشم غرايبة

الأستاذ الشاعـر أمين الربيـع

تحية أبعثها إليكما، وأنتما الأقرب إلى النفس في الزمان والمكان، والألصق بأنياط القلب وتلابيب الوجدان، خبرت فيكما صدق المودة، وود الصداقة، ونقاء الطوية، وصفاء السريرة حين تغتم السرائر، وبعد:

لما فرغت من مخطوط كتابي، (أعراف البادية)، الذي طالما تحدثنا في فحواه، وتجاذبنا أطراف الحديث حول محتواه، ومن خلال أكيد معرفتي باهتمامكما في الإرث الاجتماعي العريق، وبحثكما في القيم الإنسانية الأصيلة، وتقصيكما لما عليه الناس من عادات وتقاليد، تأصلت في نفوسهم، واستقرت بين جوانحهم، فصارت قيما حصيفة يسيرون على نهجها، وغدت أعرافا رصينة يهتدون بنبراسها، وددت أول ما أعرض كتابي عليكما، لأستنير برأيكما فيما احتوى بين طياته، فإن كنت أصبت القصد فالحمد والثناء لصاحب الفضل والمنة، وإن قَصَّرَتِ الهمة عن شأو المغزى، مع ما بذلتُ من جهد مضن، وما استغرق العمل من وقت طويل يتطلبه الإحكام، لتمكين أركانه، وتوطيد بنيانه، وصولا إلى أقاصي الأبعاد، وسبر أعماق الأغوار، وإدراك بعد المرامي،

فحسبي أنني اجتهدت ما وسعني الاجتهاد، وكفايتي أنني أجريت غاية الحيلة في بلوغ غاية الوسيلة التي هي رسالة الكاتب.

أخوي الكريمين:

التمس منكما صريح الرأي، وحسن المشورة، فإن أبديتما ما يريح النفس، فبه ونعمَّت، وإن رأيتما بثاقب نظركما رأيا يقوي عرىٰ أسباب الكتاب، ويزيد متنه متانة، عدلت إليه، مع محضي إياكما خالص الشكر، وإسدائي لكما جميل العرفان، متمنيا علىٰ أخي الكريم، الأستاذ هاشم غرايبة الذي يغمرني دوما بفضله، التكرم بالتقديم لما بين يديه إن حسن ظنه بكاتبه.

والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته

أخوكما

تموز ٢٠١٠ عارف عواد الهلال



التقديم

بقلم الروائي الأستاذ هاشم غرايبة

(أعراف البادية)، بحث أصيل، يتتبع نسغ حياة البادية، من الفروع إلى الأصول إلى الجذور، يتناول أسلوب العيش في البادية، وما يتطلبه نمط حياة البرية، من نظم ومحددات وعادات وتقاليد، كما يصف ما يلائم أهلها من مسكن ومأكل ومشرب، ويجمع عالم البداوة في نسيج متين يربط بين الفرد البدوي ومجتمعه، وبين المجتمع البدوي ومحيطه، عبر بيانه الأشياء ودلالاتها، والسلوكيات وضروراتها،والأعراف المشتقة من الواقع وأهميتها..

ميزة هذا الكتاب أنه يهتم بتفاصيل حياة البدو، ويعطيها حيويتها في سياقها العام، فإنه عندما يتحدث عن الاحتطاب ومفرداته لا ينسى القضاء وأنظمته ومراتبه، وعندما يتحدث عن الأسماء ومنابتها لا يفوته استحضار الأمثال ومعانيها، حيث نجد الأسماء والأمثال منسجمة مع البيئة ومستمدة من نمط العيش..، كذا نجد هذه العلاقة الجدلية عندما يتحدث عن بيت الشعر وصناعته، وعن "الصانع" ومرتبته..، فصناعة بيت الشعر شرف لربة البيت، أما "السائس" و"البيطار" و"السروجي" و"الفرّاء" و"الدوّاج"، فهم "الصُّنَّاع، والواحد صانع، و"الصانع" يقوم بالأعمال

التي يأنف البدوي من ممارستها..، وهنا لا بد من الإشارة إلى "قاموس" مفردات أهل البادية، الذي تعامل معه الكاتب بمهارة ودقة، حيث وردت المفردات مثل "الرِّسّل" و"الخِزّلَة"، أو أسماء الأدوات مثل "الروايا" و"القرب"، أو وصف الحال مثل"الشرية" و"البشعة".. في متون المواضيع وكأنها غير مستقرة، فاتضح معناها في سياق استعمالها.

هذا كتاب عن أعراف البادية، ألفه واحد من أبنائها..، وهو وارث أمين لتقاليدها، خبير بشؤونها، عارف بعادات أهلها، وان كان دأب الباحث أن يرجع إلى مؤلفات من سبقه في هذا الميدان، فإن التجربة الحية المعاشة للأستاذ عارف عواد الهلال مؤلف هذا الكتاب القيم هي المرجع، وإدراكه العميق لدلالة الأشياء وعلاقتها بالإنسان في إطار مجتمع البادية، هو سدى الموضوع ولحمته، واستلهامه لروح الأجداد من البدو الرحل هو سند هذا الكتاب، ومعرفته بأنماط الحياة البدوية وتفاصيل حياة البدو هي مادة البحث.

عرفنا مؤلف هذا الكتاب شاعرا مطبوعا..، وبعصاميته الطموحة بنى مشروعه الثقافي، الذي زاوج فيه ما بين الموروث البدوي الخاص، والتراث العربي الإسلامي على عموميته واتساعه، فجاءت قصيدته ملتزمة بعمود الشعر العربي الأصيل، منفتحة على المعاني المعاصرة، ومقتحمة دلالات الصور الفنية التي تراوح بين القديم والحديث، وكما هو دقيق، أنيق، حصيف في بناء قصيدته الشعرية، كذا حاله مع هذا الكتاب (أعراف البادية)، الذي يؤصل ما هو أصيل، ويأخذ بما هو مشترك بين

أبناء البادية العرب، من عادات وتقاليد وقيم وشمائل، مدفوعا بالوفاء لأقانيم البداوة، ودافقا بالمحبة لأهلها، فقدم للقارئ المستطلع، وللباحث المتأني، كتابا قيما، يضم بين دفتيه خمسة وعشرين بابا تضيء جل معالم الحياة البدوية، وتصاريف شؤونها، بأسلوب شيق، ولغة متينة.. فجزاه الله خيرا

آب ٢٠١٠ هاشم غرايبة

المقدمة

هذا كتابي، (أعراف البادية)، استظهرته مما استقر بين الجوانح، واستطلقت عُقُلَه من مباركها في الذهن، ثم ألقيته على نفسي ما بين الحوالك والدوالك، وأوائل الضحى وأطراف العشي، مضمنه قيم وأعراف أهل البادية، أقدمه للمكتبة العربية، لتحفظه خزائنها ما حفظ عادات وتقاليد وقيم البداوة الأصيلة، التي صانتها الأجيال بعقولها، ورفدتها بفكرها، وهذبتها من حين إلى حين بما يعدل اعوجاجها، لتستقيم قناتها، فازدادت متانة وحصافة، وصارت موئل القاصدين، وطِلْبَة الناشدين، ومحط أنظار المتشوفين بما آلت إليه من كمال النسج، وقوة الحبك، وجودة السبك، وجلاء الظاهر، ونقاء الباطن، وصفاء المعنى، ووضوح المبنى الذي إن غُمَّ إنما يغتمُّ على من لم يتعدَ اللفظ إلى القصد، ولم يتجاوز القول إلى الفعل، ولم ينعم حدة البصيرة لتريه ما لم تعاينه عين البصر مما حجب وراء الأفهام أو ما حالت دونه الأسقام، فالعقل يستجلي من شحيحات الصدور دسائس السرائر، ويستنبط من حلزات النفوس نفائس الذخائر، ليدمغ صاحب الجريرة بجريرته، ويبرئ من تبعات الظلامة من ألقيت عليه الأوزار زورا.

ولئن كنت أحفظ ما في الكتاب في صدري، كابن بادية رضع لبانها، وتربى على لباها، وعاش على ما رسخ في النفس، من العادات والتقاليد والقيم، التي التصقت بالروح التصاق الصفاق بالجسد، فلقد رأيت أن أظهره بسنان اليراع، على ظاهر القرطاس، مع ما أخذ من جهد عنتا، ووقت مددا، لا يدركهما إلا من جاهد

الفكرة الصعبة، وروض المعنى الشرود، وخادن أبكار الأفكار، مدفوعا بهاجس إبراء أهل البادية مما يؤخذ عليهم، ممن ثبتت حال البداوة في أذهانهم على هيئة لا تتبدل، وعلى سمت لا يتغير، في الوقت الذي يبيحون لأنفسهم دعة الحال، ورخاء الأحوال.

فمن الناس من ينظر لحاضر نفسه وينسى ماضيه، وينظر لماضي غيره مترفعا بحاضره عمن سواه، وفي هذا عدول عن القصد وجنوح إلى الزلل، فالذي يبغي التمعن في دقائق الأمور، وسبر أغوار الحقائق، عليه أن يعود بنفسه وبمن يأخذ عليهم مآخذه إلى الزمن السحيق، وليعلم بأن الناس يزحفون مع الأيام بذات الخطى، فالبداوة ليست الصحراء لا غيرها، وإن كانت وعاءها، وليست بيت الشعر لا سواه، وإن كان رمزها، وليست الإبل والشاء برغائها وثغائها، وإن كانت قوامها، وليست اللسان بلغطه، وإن كان بيانها، بل هي القيم التي رشحت من الأجيال عبر ثنايا الأزمنة، في طيات الأمكنة، فرسخت في النفوس، وطفحت على الوجوه سيماء لا عيب فيها ولا مهانة.

فأخذوا على البداوة سكناهم في العمائر، ولم يعلموا بأن أهل البادية اتخذوا العمائر منذ القدم وإن كانت على غير ما هي عليه الآن، فكانت من حيث النوع تتناسب مع السائد عند غيرهم من المجتمعات في وقتها، ومن حيث العدد تكفيهم الحاجة وتفي بالغرض، فكانوا يؤوبون إليها في منازل الشتاء، وهي التي عرفت وللآن باسم (الخراب) واحدتها (خربة) واسمها اتبع حالها إذ قلما كان يعمرها أهلها بسبب كثرة ترحالهم، حتى أنهم وقت نزولهم بها لم يقطنوها، بل شدوا أطناب بيوتهم حولها،

تنـزها عن وخم المكان الذي يطول المكوث به، وأخذوا على أهل البادية استخدام الوسائل، وقد ذهب عن بالهم بأن الأدوات متاحة لمن يملك امتلاكها.

وازداد طعن الطاعنين بالعشائرية، والقبلية، باعتبارهما من رموز البداوة التي يعتقدون فيها وسيلة الابتعاد عن الحضارة التي لم يدرك كثير من المتقولين حقيقتها، وإلا لاعتبروا أن البداوة مبتدأ الحضارة ولا تفارق ديمومتها، إذا كانت تعني التغلب على بعدي الزمان والمكان وآثارهما، وادعى المدعون تجافي أهل البادية عن العلم وركونهم إلى الجهل، ظلما لا يبدد ظلمته نور الحق الذي ينبلج لكل ذي عينين مبصرتين بوهج البصيرة، فالعلم في أهل البادية مثله في غيرهم، وإن سبق نفر من سواهم إليه فليس لأجل إنكار فضله والزهد فيه، وإن كان الطعن في العشيرة كونها السمط الذي ينظم العقد، فهي الأقوى عرى عبر الزمان من سواها، فالالتقاء بلحمة القربى، التي تشدها وشائج النسب، أمتن من الالتقاء على رأي لا يفتأ يتبدل وفق الهوى، ولئن كان القصد من القول تلك الأعراف التي ينال منها غير أولي العلم بها، فما تلك إلا ضوابط ارتآها المجتمع ليحمي أفراده من طيش الطائشين ونزق الجهال، ولا سبيل للجم الغيي إلا بإلحاق الجرم بعصبته، الذين ولحماية أنفسهم من جرائره، يأخذون على يده، ويكفونه عن جهله، قبل وقوع غبائبه، وبذلك تكونت الحصافة في المجتمعات البدوية، وانتظم عقدها، فحفظت النفس والعرض والمال، فإن كان في كل ذلك من إثم فعلى من يرتكبه، ولا يلحق غيره أذاه.

وفي الوقت الذي يلمز فيه بالقول إلى أهل البادية بظلم المرأة وقهرها، فإن حقيقة الفعل تدحض زائف القول، فحين كانت المرأة الحضرية وشقيقتها من سكان المدينة يوصدن عليهن الأبواب وفق أعرافهم التي لا نطعن بها، ولا يكلمن الخطار إلا من وراء ألواح ودسر، كانت المرأة البدوية تقري الضيف، وتجير الدخيل، فيقر فعلها من قومها، وتقبل دخالتها على من هي تحت ولايته، وتنفذ أعطيتها من مال أبيها أو زوجها، والمرأة البدوية كانت أحد أهم مفاصل القضاء عند أهل البادية، فكثير من القضايا، لم يكن لينتصب نصاب العدل فيها، وينتفي حيف الظلم عنها لولا بَرْزَةٌ من النساء قالت قولةً فصلت بها بين الحق والباطل، فنطق بحكمها القاضي بملء الفم وهو يركن إلى رأي لم يُبنَ على الهوى، ولم يزغ عن القصد.

فإن كانت سمة البداوة تتقيد بالشكل الذي عليه الناس، من قسوة الحياة وشظف العيش، فلنا أن نعري كل المجتمعات من صفاتها، فأهل الحضر لم يعودوا حضرا بعد أن هجروا الأرض، وجافوا الفِلاحة، وانتقلوا من عمران أهل القرى بتواضعه، إلى ما هو أبعد من عمران أهل المدينة ببذخه، وأهل المدينة تخلوا عن مدنيتهم التي كانت تميزهم عن غيرهم، فجانبوا صنعة اليد، وتوارث كار الجد، وأهملوا التجارة، والذي يقوم منها حاضرا ليس بالذي يعد شاهدا على مدنيتهم، لعدم اقتصاره عليهم، وقت لم يكن سواهم يواكبه.

ومن بعد، علينا أن لا نغمض عيوننا عن شاهد يتراءى لنا شخصه، لم يغب عنا طويلا، وأن لا نحول نظرنا عن مارد لم تزل آثارُ تَجَبُّرِه تئن منها نفوسنا، وسياط

ظلمه تلسع جلودنا، ومياسم استعباده لم تبرح أجسادنا، فلم نفتح جفوننا إلا بعد انجلاء الغمة، من بعد دامس الظلمة، مع طول الحقبة، ولم نعي حال أسلافنا إلا آخر العهد وحسب، ولم نسعَ إلىٰ معرفة ما كانوا عليه قبل وقوع الواقعة عليهم، وما كانت عليه حياتهم قبل الاستبداد والظلم والقهر الذي أحاق بهم، وليس من شاهد عليه سوىٰ جهل لا زال يمكث برؤوسنا، قرأناه حروفا ولم نعاينه ظروفا، وهذا لا يعطينا الحق أن نفكر بعقول ملئها الرخاء لنلقي باللائمة علىٰ من كان يكابد ويشقىٰ، بالعقل والروح والجسد.

وأبتدئ كتابي، متخيرا مواضيعه، جامعا أطرافه، باسطا أسبابه، قابضا متنه، وأوله التفريق بين أهل البادية ومن اختلط القول فيهم علىٰ أنهم من "البدو". وبالله التوفيق.



"العرب" و"الأعراب"

﴿١﴾

"البدو"، أحد مجتمعات الحضارة، أقوام من العرب الخلص، بقيسها ويمنها، أو عدنانها وقحطانها، أو متعربها وعاربها، يرتَدُّون بأنسابهم بقوة إلى آباء القبائل التي تتفرع إلى بطون وحمائلَ وأفخاذ، يتدرجون بنسب متين يرتقي بهم إلى أصول طبقات الجدود وينحدر إلى الأحفاد في تعداد حصيف نقي لا يشاب، فمن نسي فطنوه، ومن غالى ردوه، ومن تجاهل أعادوه إلى حيث يجب أن يكون، لينفوا عنهم نسب من قبلوا ولاءهم، أو منحوهم جوارهم، وإن كانوا مثلهم في الرفعة، أو فوقهم في الذكر، ليبقى النسب خالصا لكل قوم، يتذاكرونه بجلاء جيلا بعد جيل، ويورثونه بصفاء ونقاء من السلف إلى الخلف تالدا ناصعا وطارفا عزيزا، يحفظونه في صدورهم حفظ الجسد للروح ما بقيت، ويصونونه صون الروح للجسد ما دامت، ليكون صريح النسب الذي يشد بينهم الأواصر، ويوثق العرى، ويزيد اللحمة، حتى صارت القبيلة موئل فخر أدناهم، ونبراس عز أعلاهم، لما تشكله من ملاذ لهم في جميع مناحي حياتهم.

وكما أضفت الحاضرة والمدينة نسبة لفظ المكان على سكانها، جاء اسم "البدو" نسبة إلى "البادية"، وهي ظاهر الحاضرة، حيث لكل قبيلة مستقرها بين جنباتها، فعرفت المناطق بالقبائل، مثلما عرفت القبائل بالمناطق، حتى أضيفت أسماء كثير من المواطن إلى أسماء قبائلهم من قبيل النسبة إليها، مما يؤكد ثبات الموطن الذي لا ينفيه الترحال، فاقتصرت "البداوة" على قبائل بعينها وفق عرف تطاول به الزمن

فاستقر فيهم تمييزا لهم عن كل من يتبدى، فمن التحق بالبادية لم يلفظوه من بينهم، غير أنهم لم يلحقوه بهم نسبا ونسبة.

ومثلما أن نسبة أهل الحضر ليست موقوفة على الحاضرة بذاتها، ولم تعدو أن تكون نمط حياة دون أن تكون نسبا، فإن نسبة "البدو" ليست خالصة إلى مواطن الانتواء والانتجاع وارتياد الكلأ وإن أخذت منها، وليست مأخوذة من البداءة كما يخيل للبعض، فأنسابهم أحق باللحاق، وأخلاقهم أجدر بالانتهاج، وقيمهم أوجب بالإتباع، وأعرافهم التي تولدت عن عادات وتقاليد عبر الزمن أولى بالركون إليها، فصارت حافظهم مما يترفعون عنه، أو يأنفون منه، فاستقروا على نهج يبرئهم مما يلحق بهم من قول بلا علم، مما يجافيهم في الحقيقة، أو يتجافون عنه في الطريقة،فأهل البادية أقوام من خلص العرب، أنقياء النسب اعتمادا على "القص" و"الخص"[1] الذي ما فتئ يثبته النسابون الذين برعوا فيه، لاحتسابهم صراحة الآباء ونقاء العروق، يجتمعون على آبائهم، وينتظمون في أعراقهم، ويتبعون أعرافهم التي اختصوا بها وإن شركهم سواهم في بعضها.

فممن يقولون بغير علم بحقيقة "البداوة"، يطلقون عليهم حينا اسم "النبط"، وإن اقتصرت التسمية على شعرهم خاصة، فذاك مدعاة إلى القياس على العموم، والذين يقولون بذلك ربما لا يعلمون بأن "النبط" ليسوا عربا ألبتة، فهم جِيلٌ

(١) القص والخص: عرف من أعراف البادية يتبعونه لإثبات النسب بإلحاق الخلف بالسلف والفروع بالأصول بتتبع الجدود في عملية يقوم بها نسابون يزكون من أولي علم بالأنساب، وهو مذكور لاحقا في موضوع "الدخالة" و"الجلوة".

من الناس كانوا يَنْـزِلُون سواد العراق، وعامتهم "الأَنباطُ"، والبدو يعرفون من استعرب منهم باسم "نبيط"، بهمزة ممالة قبل النون الساكنة، والنَّسَبُ إِليهم "نَبَطِيٌّ" وفق معاجم اللغة، ويستدل على عدم خلوص نسبتهم إلى العرب ما تعرب من لغتهم في لغة العرب، والتي أحكمتها المعاجم، فكلمة "الحُرْدِيُّ" و"الحُرْدِيَّةُ" وهي حياصة الحظيرة التي تُشَدُّ على حائط القصب عَرْضاً، أثبتها "لسان العرب" على أنها "نَبَطِيَّةٌ" معرَّبة، وهي شبيهة كلمة "كوخ" بالفارسية المعربة، كما أن كلمة "الحَنْدَقوقَى" أو"الحَنْدَقُوقُ" أو "الحِنْدَقُوقُ"، وهو نبت من الفصيلة البقلية "نبَطِيّة" مُعرَّبة، ولا أذكر هذه الألفاظ على قلتها إلا من باب الاستدلال، وإلا فقد وقعت على الكثير من مثيلاتها وأنا أبحث عن أصول العديد من الكلمات في لغة أهل البادية في بطون المعاجم للتحقق من صحة نسبتها العربية.

ومن الأجناس الذين استعربوا، "الزط"، واللفظ تعريب كلمة "جَت" بالهندية، وفق معجم "لسان العرب"، وهم جيل من السِّنْدِ، وقيل "الزُّطُّ" هم "السَّبابِجةُ"، قوم من السِّنْدِ كانوا بالبصرة جَلاوِزَةً وحُرّاس السجن، وأهل البادية يطلقون على من استعرب منهم اسم، "زط جهينة"، و"جهينة" قبيلة عربية صميمة مشهورة، ونسبتهم إليها ربما جاءت من باب الموالاة، مثلما استعرب بعض "الحبيش" و"الزنج"، وغيرهم من أقوام أمم أخرى.

والأشد نكئا من يلقون بلفظ "الأعراب" على "البدو" مطلقا، وهو أمر لا يسلم من شر، ولا يخلو من أذى، وإن لم يقصد منه ما ينطوي عليه من سوء من قبل من

يتلفظ به على غير دراية، ودون إدراك للفرق بين "العرب" الذين هم "البدو" وبين "الأعراب"، حيث أطلق على "البدو" اسم "العرب" من لدن أنفسهم من باب الاعتزاز حينا، وعلى صيغة الكثرة حينا آخر، كما أسمتهم المجتمعات الأخرى بالعرب تمييزا لهم عن أهل الحاضرة والمدينة، وقد أثبتت المعاجم اقتران اسم "العرب" بأهل البادية، ومنها ما جاء في "لسان العرب" الذي قال في مادة (ع ر ب)، "والعربي منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدويا"، ويقول ابن منظور في معجمه، قال الأَزْهَرِيّ: "والذِي لا يُفَرِّق بين العَرَبِ والأَعْرَابِ، والعَرَبِيِّ والأَعْرَابِيِّ رُبَّما تَحَامَلَ عَلَى العَرَبِ"، وفي هذا القول تبيين جلي للتباين بين هؤلاء وأولئك.

ولم أكن لأثبت ما ثبت في ذهني، وما أثبتته بطون المعاجم، ودونته متون الشروح في أمهات الكتب وعيون الأسفار، مع قوة قناعتي بإظهاره، وشدة يقيني بإخراجه، خشية مسي بالتعصب لبداوتي، الذي إن برئت منه أمام نفسي، لم أعذر فيه من الناس، الذين يستقر في أذهانهم ما يسبق إلى أسماعهم فيستسلمون له، ويجادلون به، ويصير من الخطيئة باعتقادهم التحول عنه إلى ما هو أصوب منه، وكان من الحرج عليَّ محاولة الخوض فيه، لولا جبل من الرجال بعلمه الفياض، وأدبه الجم، وقعت عيني بعد أن أتممت الكتاب وبالصدفة المحضة، على ثِبتِّ العلامة الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد، الذي جلا مستغلق الأمر، وحز مفصل القول في بحث مستحكم مستفيض ورد في كتابه، "تحقيقات لغوية"، فانبرى للتفريق بين اللفظين، وأوضح على

من يقع معنى كل لفظ منهما، فأثبت أن "الأعراب" غير "البدو"[1]، وهو مضمار لا يشقه إلا فارس كلمة، وقانص طريدة، وجهبذ علم، يثبت رأيه بحجته العلمية، ودقة بحثه المتمهل، وحصافة تقصيه المتأني، ومنهجه الهادئ في الاستقراء، وأسلوبه الأدبي الرصين، البريء من العصبية والتعصب، وهو ديدن لا يواتي إلا العلماء والحكماء والحلماء أمثال أستاذنا الجليل، فعدت إلى متن كتابي، لأقدم هذا الموضوع على سائر مواضيع الكتاب.

من بعد نقول بأن "الأعراب"، وإن تميزوا باقتضاب القول وحكمة الكلام، واشتهروا بطب الأبدان، فهم شراذم من مختلف الأجناس، بعضهم من شطَّار العرب، أجبرتهم ظروفهم في وقتها على استقصاء أطراف الصحراء، حتى استقرت حياتهم فيها، فرثت حالهم، وجفت طباعهم، وغلظت أخلاقهم، واختلطت أنسابهم، ولم يراعوا نقاء عرقهم، فتحاشاهم "البدو"، وأنفوا مخالطتهم، وأطلقوا عليهم اسما واحدا عُرفوا به عند أهل البادية وغيرهم، وهذا الاسم الذي أتحاشى ذكره، يجمع شتات شراذمهم، وفرقة أصولهم، ولا يفرق بين أقصاهم وأدناهم اتقاءً لمجاورتهم ومصاهرتهم، وإن ماثل "الأعراب" أهل البادية في بعض نواحي حياتهم، فهو أمر لا يتعدى بعضا من نمط الحياة التي تتشابه بين كثير من الناس في مختلف الأمم والعصور، فطرائق العيش ليست نسبا يعتد به، وإن كان، فإن ذلك مدعاة لتبدل الأنساب بتبدل الأنماط، وهو ما لا يصح الوقوف عليه.

---

(١) كتاب "تحقيقات لغوية" للدكتور ناصر الدين الأسد، صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت عام ٢٠٠٣.

وقوام حياة "الأعراب" الإبل والماعز لا غيرهما من باقي الأنعام، لتحملهما العيش في الأماعز من الأراضي، وصبرهما على الحر والظمأ أكثر من الضأن التي لا توافقها شدة الحر، ولا تحتمل العطش وموطنها الأرض المطمئنة دون الوعرة التي لا يوائمها كلأها، وتعد قوام حياة "البدو"، وإن اقتنى "البدو" الماعز فلم يقتصروا عليه دون الضأن، ولم يقتنوا من الإبل إلا بقدر حاجتهم من الرواحل والزمل[1].

وفي حين سكن "الأعراب" الأخبية، وهي بيوت صغيرة، لا تكاد تفي بأدنى حاجة ساكنيها، دون غيرهم، مما ينبئ بانطوائهم على أنفسهم، وعدم اختلاطهم بسواهم، وقلة اكتراثهم بالقيم التي عليها "البدو"، من الإجارة والضيافة وما يتبعها من المروءة والشهامة والكرم، وهي خصال لم يجافها أهل البادية الذين اتخذوا "بيوت الشعر" منازل لهم، ويأنفون من أن يقال لها "أخبية" كما يتردد على كثير من الألسن لاعتقادهم مرادفة الاسم وانطباق المعنى، وهي ليست كذلك، ولا "خياما" لأنها ليست مثلها ولم يتخذوها مسكنا.

---

(١) الرواحل: مفردها راحلة، ورحول، وكلا اللفظين على التأنيث، وهي من الإبل التي تستخدم للركوب، والزمل: جمع زمالة على غير قياس، وتلفظ بهمزة مخفوضة قبل الزاي الساكنة، وهي التي يتخذونها للأحمال.

بيتُ الشَّعر

﴿٢﴾

اتخذ أهل البادية "بيوت الشعر" مأوىً لهم، لسهولة انتقالهم بها من مكان أجدب مرعاه، وشح ماؤه، إلى آخر فيه الخصب والماء، ومن "مشتى" إلى "مِرّباع" ومنه إلى "مَصيف"، ولوفرة المواد التي يُصنع منها كالشعر والصوف والوبر، يحصلون عليها من مواشيهم في مواسم جزها، إضافة إلى براعتهم في صناعتها.

يتكون "بيت الشعر" من ست أو ثمان "شِقاق" في العرض، وهي التي تشكل سعة البيت في العمق الذي يقولون له "بحر"، وبطول مناسب لحجم البيت، وواحدة "الشقاق"، "شِقَّة"، وتنسج من شعر الماعز الخالص ذي اللون الأسود بعد أن "يُغزَلُ" و"يُبرَمُ"، وطريقة الغزل والبرم تكون بعد أن يتم قص شعر الماعز في موسم " القصاص" وتنظيفه يدوياً مما يعلق به، ثم يجري "مشقه" بواسطة "المشَّاقة" وهي عبارة عن لوحين خشبيين مربعي الشكل طول ضلع الواحدة أكثر من "شبر" قليلا، لكل منهما مقبض، يثبت على وجه كل واحدة قطعة من الجلد السميك بعد أن يكون قد غرزت بهما أسلاك معدنية قوية ومرنة وذات أطراف معقوفة باتجاه واحد ولها أطوال متساوية، تستعمل في "المشق" و"المَذّع"، و"المَشْق" خاص بالشعر بينما "المذع" يعني خلط الصوف مع الشعر لإكساب الشعر شيئاً من الليونة، وتتم عملية "المشق" بأن يوضع قليل من الشعر على إحدى "المشاقتين" فيما يتم تحريك "المشاقة" الأخرى من فوق الأولى بحركات قوية ومتتابعة وباتجاه معاكس لتتخلل الأسلاك الشعر

فتخلطه ليصبح متجانساً، ويجري تخليص الشعر "الممشوق" من بين الأسلاك بحركة مخالفة لطريقة "المشق".

ومن بعد إتمام عملية "المشق" أو "المذع" تجري عملية "الشَّفْع"، ومن خلالها يتم توصيل الخليط ببعضه على شكل لفائف تطوى على بعضها لتصبح كتلة تسمى "شفيعه" ثم تبدأ عملية "الغزل" بتعليق بداية "الشفيعة" في "عقفة المغزل" وهو عبارة عن عود أملس من الخشب بطول زند اليد تقريبا وقد ثبت بأعلاه خشبتان صغيرتان متصالبتان لمنع الخيط المغزول من الانفلات من المغزل ثبت في وسطهما من الأعلى سلك معدني معقوف يسمى "صنارة" يتم تعليق خيط الغزل فيه للفصل ما بين ما تم غزله وما سيتم، وتتم إدارة المغزل من الخارج إلى الداخل بعد أن يتم تدريج طرف "الشفيعة" للتحكم في سماكة الخيط، وكلما تم غزل ما طوله يساوي مسافة ما بين الذراعين يطوى على المغزل، ومن ثم يتم تخليصه بسحبه للأسفل. أما عملية "البرم" فتتم بازدواج خيطين من الغزل وبإدارة المغزل بالاتجاه المعاكس لعملية الغزل لينتج خيط سميك ومتين.

أما عملية "النطي"، ويقال لها "النطو" وهي ذاتها عملية "النسج" فتجري بمد خيوط "البريم" على طبقتين سفلية وعلوية باستخدام "النَّول" وبالطول الذي يحتاج إليه، وبعرض يساوي طول الساعد مع كفة اليد، ويبدأ النسج باستخدام "المنساج" وهو خشبة ملساء ليست ذات سماكة كبيرة وبعرض الكف تقريباً وطولها ضعف عرض "الشقة" ، أحد طرفي عرض "المنساج" دقيق، ويستخدم لزيادة لحمة

النسيج بأن يتم تحريكها للأمام وجذبها إلى الخلف بقوة، ثم ولزيادة المتانة وإغلاق الفجوات ما بين الخيوط يتم استخدام "الشيصاةّ" وهي (الصيصاة) والتي تتخذ من قرون الغزلان، طرفها العلوي معقوف ومدبب، يتم بواسطتها جذب خيوط النسيج العلوية باتجاه عملية النسج، وفي كل مرة يتم استبدال طبقات الخيوط، بحيث تكون السفلى عليا والعليا سفلى يمرر من بينها "الميشع"، وهو قضيب من الخشب بطول يزيد عن عرض"الشقة" قليلا يطوى عليه خيط من "البريم" للتقدم في عملية النسج.

وتتم خياطة "الشِّقاق" مع بعضها باستخدام ذات خيط النسيج يضاف إليها "طريقتان"، الأولى أمامية وتسمى "شفاة" على الإفراد في اللفظ، والثانية خلفية ويطلق عليها أسم "مخل"، والجمع "طرائق" وواحدتها "طريقة"، وهي ذات "الشِّقة" إلا أنها أقل عرضاً، وفي العادة يتم استخدام خيوط الصوف في النسيج لإضافة لون آخر إلى لون الشعر من جهة، ولزيادة الليونة من جهة أخرى، وبعد إكمال الخياطة طولياً تأتي عملية تقسيم البيت عرضياً بواسطة "الطرائق"، التي تخاط في الجهة الداخلية من "الشِّقاق"، مما يلي الأعمدة وبشكل عرضي، وبطول يزيد عن عرض البيت بما يسمح بطي طرفي كل "طريقة" من الأمام والخلف ليوضع أثناء الطي عود من الخشب القوي يزيد طرفاه عن عرض "الطريقة" لتتصل بطرفي العود قطعة حبل تسمى "كَرَّابة"، يُشد من خلالها الحبل بالوتد، ويطلق على العُرى الأمامية التي تشد منها الحبال اسم "الدويخلات" واحدتها "دويخل" والخلفية "مخالف" واحدها "مخِلِف" بينما تلك التي يتم استحداثها على الجوانب فتسمي "عمائر" الواحدة "عَميرة".

ويقوم البيت على ثلاثة صفوف من الأعمدة، تسمى الأعمدة الأمامية "مقادم" واحدها "مقدم" وتلفظ بلسان أهل البادية بإبدال القاف جيما وكذلك الطرائق، وأكثر ما يطلق اسم "المقدم" على العمود الأوسط منها، والأعمدة التي في الوسط يطلقون عليها اسم "الوُسَّط" باستثناء عمودي الأطراف فيقال لكل منهما "كاسر" وتستبدل الكاف جيما مغلظة، وعماد أعمدة "الوُسَّط" أوسطها، أما الأعمدة الخلفية فتسمى "دوافع" واحدها "دافع" وأعمدة الوسط أكثر طولا من "المقادم" التي تزيد في الطول على "الدوافع".

وينسدل من طرفي البيت جزء من "الشِّقاق" تصل إلى الأرض يقال للواحدة "رُفَّةٌ" لستر جانبي البيت، وأما الستار الخلفي فيطلق عليه اسم "رواق" والأمامي "حِجال"، وهما قطعتان تتخذان من "الشِّقاق" منفصلتان عن البيت، يتم تثبيتهما بواسطة "الأخلة" واحدها "خِلال" وهو قضيب معدني معقوف الطرف الخلفي على شكل حلقة لتكون كل مجموعة في خيط متصل، ومدبب الطرف الأمامي لتسهيل عملية غرزه ما بين "الرواق" و"المخل" وما بين "الحِجال" و"الشِّفاةٌ" ويتم تثبيتهما من الأسفل بواسطة أوتاد صغيرة وقطع الحبال.

ويفصل ما بين كل "شِق" وآخر في بيت الشعر ستارة تسمى "ساحة" وأكثر ما تكون منسوجة من الصوف الخالص أو الوبر، وأحيانا تكون "مرقمة" أي موشاة، ويتم تثبيتها بربط طرفها العلوي بالأعمدة وتسدل إلى الأرض.

ولكل "شق" من البيت أسمه، فمكان جلوس الرجال يطلق عليه اسم "الرَّبْعة" أخذت من اسم الربع (أي الجماعة) وما يليه "المَحْرَمْ" وهو الجزء المخصص للنساء (أي المحارم) ثم "الحادرة" وهذا الجزء بمثابة بيت المؤونة.

ولكل قبيلة من القبائل عادتها في تخصيص جهة "الرَّبْعة" وإن كانت أكثر القبائل تجعلها إلى جهة يمين الضيف إذا أقبل، فإن هنالك قبائل تجعلها إلى جهة اليسار، والضيف يستدل عليها من خلال مرابط الخيل أو معاطن الماشية التي عادة ما تكون إلى جهة "الرَّبْعة"، أو بواسطة "الحِجال" إذ غالباً ما يكون مشرعاً من جهة "الرَّبْعة" فيما يكون ساتراً سائر أجزاء البيت.

ولبيوت الشعر أسماؤها التي ترتبط بأحجامها، فالبيت الذي يتكون من "شقين" ويبنى على "واسط" واحد يقال له "قَطْبَةْ"، والذي يبنى على "واسطين" يسمى "صهوه" ولفظه بهمزة القطع المخفوضة يليها سكون ففتح ثم فتح فسكون، وما يقوم على ثلاثة "وُسَّط" يقال له "مثولث" ثم "مروبع" و"مخومس" وحدها الأعلى "مسودس"، وعند الرحيل يتم تخير المنازل لبناء بيوت الشعر.

الرَّحيل و النَّزيل

﴿٣﴾

لأهل البادية ثلاثة منازل تبعا للفصول، يختارون كل منـزل بما يتناسب والفصل الذي سيقضونه فيه، فمنازل الشتاء تسمى "المشاتي"، وعادة ما يتخيرون أرض "الجَلَد"، أي الأرض الصلبة التي لا توحل مع المطر، بحيث لا "تردغ" ماشيتهم، و"الرَّدَغ" وسخ يعلق بالماشية من معاطنها نتيجة مخلفاتها وامتزاجها بالطين جراء المطر، فضلا عن قساوة مواطئها التي تحول دون استرسال أظلاف الماشية في الطول، فينـزلون أمكنة مطمئنة، ترتفع عن مسايل المياه، احترازاً من أضرارها، وتنخفض عن مضارب الرياح اتقاءً لآثارها.

فمنازلهم في أواخر الخريف وأوائل الشتاء أرض الحَماد لاطمئنان أرضها وجودة مرعاها وهدوء أنوائها، وفي أواخر الشتاء وأوائل الربيع ينـزلون أمكنة الجلد من أراضي المفتلح لخصوبة مراعيها ووفرة مياهها، وأواخر الربيع وأشهر الصيف تكون منازلهم في الأرض المزروعة التي حصد غلالها لتقتات مواشيهم على مخلفاته.

فمتى أجدب المرعى ونزح الماء طلب أهل البادية منازل أخرى فيها خصوبة المراعي لمواشيهم ووفرة المياه لهم ولأنعامهم، فان عزموا على الرحيل أرسلوا "العساسين" واحدهم "عاس" ويطلقون عليهم اسم "الطُّرَّاش" أو "الطُّرُوش" واحدهم "طارش"، في رحلة قد تستغرق أياما يطلقون عليها اسم "العس" أو "الرَّوْد" يجوبون الأماكن يتحرَّونها أيها أكثر خصبا وأجود مرعى وأوفر ماء

ويتفحصون الأمكنة بخبرتهم من حيث صلاح الأرض وملاءمة طقسها وعذوبة مائها وجودة مراعيها وخلوها من النباتات الضارة التي تفتك بالماشية ، ويغادر "العسس" الذي يتكون من مجموعة من الرجال الذين يخبرون الأماكن حيهم إما "رِجّلا" أي سيرا على الأقدام إذا كانت المسافة قريبة، أو "ركبانا" على ظهور الدواب إن ابتغوا دياراً بعيدة، يتزودون بحاجتهم من الطعام والماء ما يكفيهم خلال رحلتهم التي قد تستمر أياماً، وعادة ما يكون "زهابهم" أي "مؤونتهم" مما لا يعرض على النار استدراكاً للوقت، ويحملون على ظهور دوابهم ما يلزمهم مما يتدثرون به عند المبيت، ويبدأون تقصي المواقع وتفحص نباتها ويستطلعون ماءها، وينتقلون من مكان إلى آخر عسى أن يكون أجود من سابقه، تسوقهم خبرتهم أو إخبارهم، حتى إذا استقر رأيهم عادوا إلى قومهم ووصفوا لهم حال كل مكان "عَسُّوه" وإن كان في بعضها أقوامٌ آخرون يشركونهم في المرعى والمورد، استأذنوهم في النـزول إلى جوارهم، ومتى أقروا الرحيل ضربوا موعدا للانتقال من منـزلهم هذا إلى المنـزل الجديد، وقبل موعد الرحيل بأيام يرسلون بماشيتهم مع رعاتها وحراساً إلى المكان الذي سيرتحلون إليه، تسير على مهل خشية إجهادها ليتوافق وصولها مع موعد نزولهم لان مسير الراحلين أعجل، ويطلقون عليها اسم "الطَّليع".

ويبدأ القوم بالاستعداد للرحيل فقبل إشراق شمس يوم الرحيل يكونون قد تحملوا، فمنذ الليل يبدأون استعدادهم، حيث يهيئون "غَفّر" البيت، و"الغَفّر" هو الأثاث والأواني والشكاء وباقي الحاجيات من متاع ومؤونة، إذ يعدونها بالترتيب لتوزيعها على الأحمال ليسهل نقلها، بحيث تُحمل المؤونة على ظهور "الزَّمِلّ" أي

الجمال، بواسطة "العُدولْ" واحدتها "عِدّلْ"، وهي عبارة عن وعاء على شكل كيس كبير مصنوعة من نسيج الصوف أو الوبر تتسع الواحدة منها إلى ما يقرب من عشر أمداد من القمح، تُقرن كل اثنتين مع بعضهما على ظهر البعير بواسطة حبال مجدولة من خيطان "المَذيع" التي يتم "غَزّلُها" من خليط الصوف والشعر لإكسابه قوة، ويراعى أن يتعادل الثقلان كي لا يميل أحدهما بالآخر أثناء المسير، ويقال لكل "عدلين" متقابلين "حِمِل" ، ويتم تثبيت باقي الأمتعة بالحبال على ظهور الدواب، فيما يتم حمل الحاجيات التي يضطرون لاستخدامها كالماء والطعام لوحدها على دواب لتسهيل تناولها، وتوضع الأواني بين الحمول، وتعلق "القدور" وهي أوعية نحاسية كبيرة تستعمل للطهي و"المناسف" وهي أيضا أوعية نحاسية تستخدم لتقديم الطعام تعلق بواسطة "مخادمها" وهي حلقات مثبتة بأطرافها على ظهور الدواب المحملة بباقي الأمتعة.

ومع أول الصباح يقومون بإنزال البيوت بسحب أعمدتها ثم نزع أوتادها والبدء بعملية طيها، فيجعلون داخل البيت خارجا ويبسطونه طولا ثم يكف من أحد طرفي عرضه بقدر الثلث ومن الطرف المقابل كذلك بحيث لا يتجاوز عرضه طول بدن الجمل، وتجعل الحبال بأوتادها في عرض البيت من الداخل بعد عملية كفِّه، ثم يتجهون إلى الأطراف الطولية فيقومون بطيها طيات متعادلة للداخل، وقبل أن ينتهوا من إكمال الطي يخرجون حبلاً من كل جهة لربط طرف كل حبل بطرف الحبل الذي يقابله من الجهة الأخرى لجمع طيتي البيت إلى بعضهما، من بعد يقربون جملاً فينيخونه ويجعلون حول سنامه "حداجة"، وتلفظ بهمزة مخفوضة قبل الجيم الساكنة، وهي

قطعة من النسيج ترتفع حول السنام لتسوي قراه بسنامه لتوزيع ثقل الحمل على كامل ظهر الجمل كي لا يتأذى من الثقل، ثم يحملون البيت الذي تتوسطه الأعمدة على ظهر الجمل، فتصير كل دفة من البيت على جانب من جنبي البعير، ويحملون باقي أوثارهم على جمال أخرى أو على البهائم ويبدأون مسيرهم مع أول النهار.

فان كانوا يصلون منـزلهم الجديد في نفس اليوم استمروا بالمسير وإلا أقاموا بعد ثلثي النهار ليستريحوا ويريحوا ركائبهم، فينـزلون عن ظهورها، ويبيتون ليلتهم دون أن يبنوا البيوت، إلا إذا اضطروا لذلك، فيعمدون إلى التعجيل ببناء ما يقي النسوة والصبية إلى الصباح ليكملوا مسيرهم حتى الوصول إلى منازلهم الجديدة.

ويحضر الظاعنون أي الراحلون قبل الرحيل الولائم عند المقيمين توديعا لهم، وعند غروب شمس يوم الرحيل يعمد الجوار المقيمون إلى إيقاد النار في أماكن منازل الراحلين ولثلاث ليال، استذكارا لهم وتيمناً بعدم انطفاء نارهم، فبعد اليوم الثالث يأنسون إلى أنهم وصلوا منازلهم وبنوا بيوتهم وأوقدوا نيرانهم.

فمتى وصلوا منازلهم، تفرقت بيوتهم عن بعضها إلى مسافات بحيث يسمع صوت المنادي، ويطلق على جمع البيوت لغاية خمسة اسم "فريق" وتلفظ القاف جيما بلغة أهل البادية، فان زادت قيل "نَـزِّل" وان كثرت "نزول" بهمزة ممالة قبل النون الساكنة، والبيت الواحد يقال له "خلاوي" ويسمى المقارب في السكنى "قصير" مأخوذة من قصر المسافة.

ويبنى بيت الشعر باتجاه مشرق الشمس، وطريقة بنائه تتم ببسطه في المكان المراد بناؤه فيه بحيث تكون "طرائقه" إلى الأسفل، ثم تمد الحبال وتثبت الأوتاد من جميع الأطراف وترخى الحبال قليلا لتسهيل عملية رفع الأعمدة، وأول ما يرفع عمود "المقدم" ثم "الواسط" و"الدافع" الذي يلي "الواسط" ثم يتوالى رفع باقي الأعمدة وصولا إلى "الكواسر" من بعدها يعاد شد الحبال ثم يعلق "الرواق" و"الحجال".

وإذا كانت الأرض لينة يوضع تحت الأعمدة قطع من الجلد السميك أو طبقات من النسيج تسمى الواحدة "قعادةٌ" تمنع انغراس العمود في الأرض، أما إذا كانت الأرض صلبة جدا أو شديدة الرخاوة بحيث لا يمكن تثبيت الأوتاد في الحالة الأولى أو ثباتها في الحالة الثانية فإنهم يلجأون إلى استخدام "الكلبة" (من التكليب) لتثبيت الحبال، وكل "كلبة" عبارة عن حجرين كبيرين يوازيان إلى جانب بعضهما ويترك فاصل بينهما يوضع فيه الحبل محاطا بالأعشاب أو قطع النسيج لتحول دون احتكاكه بالحجارة مما قد يؤدي إلى تلفه، ثم يعلوهما حجر كبير، وما أن يكتمل بناء البيت ويشق حوله "الوني" وهو قناة تحفر حول البيت من جهات تدفق المياه لصرفها عنه، يتم حفر "النقرة" وهي حفيرة يستحدثونها في وسط "الربعة" لإيقاد النار.

فإن نزلوا أرضا خلاء عجلوا بناء أحد البيوت ليقوم أهل البيت الذي عُجِّلَ بناؤه بإعداد الطعام لـ"الفريق"، فيما ينصرف باقي أهل الحي لاستكمال باقي البيوت على مهل حتى إذا جهزت الوليمة أقبلوا عليها، وان نزلوا على قوم مقيمين وجبت

"النِّـزالة"، وهي وليمة يعدها المقيم للنازل إكراماً له وتخفيفا عنه من مشقة السفر، كما يعمدون إلى إعانتهم في بناء بيوتهم.

النِّزالة والمِلْحَة

﴿٤﴾

إذا نزل قوم راحلين بجوار قوم قاطنين أعان الماكثون النازلين على بناء بيوتهم ، فأرسلوا نساءهم لإعانة النساء وقام الرجال بإعانة الرجال وقت يكون قد سبق أحد رجال الحي القاطنين بدعوة النـزلاء إلى وليمة "النـزالة" التي يتعجل إعدادها إكراما لنـزولهم بجوارهم وتخفيفا عليهم من مشقة السفر وعناء الرحيل، وإن كان النازلون كُثراً دُعوا إلى أكثر من وليمة لدى أكثر من داع، وتتكرر الولائم من أهل الحي المقيمين إلى النازلين وعلى أيام حتى تكتمل استضافة النـزلاء لدى جميع أهل الحي، فقبل أن ينفضوا من مجلس الوليمة التي دعوا إليها يجدد أحد رجال الحي المقيمين الدعوة إلى وليمته التي يجوز للمدعوين الاعتذار عنها اكتفاء بأول وليمة أقيمت لهم والتي لا يحق لهم عدم إجابتها لما في ذلك من انتقاص يطال الداعي، ومن دواعي الاعتذار عن الولائم عدم الإثقال على المستضيفين وتخفيفا على ضعفاء الحال وعدم تحميلهم فوق طاقتهم وهم لا يستطيعون إلا الدعوة كالقادرين إذ لا ينتبذون من بين قومهم عن إكرام النـزيل وربما جاء العذر لهم من صاحب الوليمة الذي يدعو على وليمته جميع رجال الحي.

عند اقتراب وقت الوليمة يذهب الداعي أو يرسل "عزّاما" ليصطحب المدعوين إلى بيته توقيرا لهم وزيادة في إكرامهم ودفعا للحرج عنهم من الإتيان بذاتهم، وعند إقبالهم مع "العزّام" يستقبلهم عند مقدم البيت مرحبا بهم ببشاشة، مؤانسا إياهم

بلطيف الكلام، وما أن يأخذوا مجالسهم حيث يشير عليهم حتىٰ يقف علىٰ رؤوسهم بقهوته يبدأوها من يمين الجلوس إلا إذا أشاروا إليه بكبيرهم الذي في العادة يتوسطهم في المجلس، ولا يعجل في تقديم الطعام الذي لا يقدم إن كان مطهوا لا حارا تقلص دونه الأيدي ولا باردا تعافه النفس، وبعد أن يكفوا عن الطعام يهدىٰ منه إلىٰ نساء النـزلاء في بيوتهن ما لم تكن "راعية" البيت قد دعتهن إلىٰ وليمة وليِّها مع رجالهن وتقوم هي علىٰ ضيافتهن في "المحرم" إذ يقبلن من جهته بينما يقوم صاحب البيت علىٰ ضيافة الرجال في "الربعة" ومن جهتها يقبلون.

وتقدم الوليمة حسب قدرة حال الداعي دون أن تلحقه مذمة من المدعوين، فمن استطاع أن يولم علىٰ ذبيحة فعل ومن تَحولُ حالته دون ذلك قدَّمَ من ميسور الطعام دون أن يظهر منه بخل يزرىٰ بأقدار المدعوين أو يقلل من شأنهم، داعيا علىٰ الميسور من الزاد الذي لا يذم من قبل المدعوين مبديا عذره من تواضع صنيعه حافظا بلسانه كرامة النـزلاء وأقدارهم، ويرفع عنه المدعوون الحرج الذي قد يجده في نفسه من قلة حيلته بأن يُقبِلوا علىٰ الزاد ولا يصدون عنه، ويثنون علىٰ جوده ويستكثرون له الخير علىٰ كرمه.

ويعمل النـزلاء علىٰ رد "النـزالة" إلىٰ أهل الحي بدعوتهم إلىٰ ولائمهم ردا علىٰ كرمهم دون أن يُظهر أحدُهم تفاخرا في وليمته علىٰ من سبق بدعوته، فلا تقدم وليمة تزيد علىٰ ما أولم لهم لئلا يتسبب ذلك في حرجهم، ولا دون الذي أكرموا به مع القدرة عليها، فمن كانت قدرته فوق أقرانه تواضع لهم ومن كانت قدرته دونهم التمس له

القوم عذرا عند قبول دعوته بأن يطلبوا منه عدم تكليف نفسه فوق طاقتها أو أوجدوا له سبيلا إلى مجاراتهم بأن يرسلوا إليه ما يعينه على إقامة وليمته ليجعلوه كأحدهم لا ينقص عن أقدارهم بلا منَّةٍ ودون أن يحس بدنو المنـزلة.

والقصد من إقامة الوليمة الاستئناس والتعارف، وعلى المدعوين إجابة الدعوة لضرورة الملحة التي تعد في أعراف أهل البادية من العهود والمواثيق التي تحكم حياتهم وتنظم سبل معيشتهم، بها يأمنون على أرواحهم، ويعتمدون عليها في حفظ أموالهم وصون أعراضهم، فعليها يعولون في استشعار الطمأنينة والإحساس بالسكينة، فهي ركن قوي يركنون إليه في علاقاتهم وركيزة ثابتة تقوم عليها حياتهم.

فالملحة عهد قوي وميثاق غليظ يعطيه من يدخل على القوم مع أول مطاعمته لزادهم أو تجرعه لشرابهم، وأمان يأخذه صاحب البيت من الداخل عليه، به يأمن كل منهما بوائق قبيله، ويطمئن إلى نظيره، تدفع به الريبه ويطرد سوء الظن وتوطن المروءة في النفوس فلا غدر ولا خديعة مع "الملحة"، فهي عرف أوجبته طبيعة حياة البداوة، حيث تتباعد منازلهم في الأقاصي مما يحوجهم إلى الأمان على نفوسهم وأموالهم وأعراضهم.

فمتى أقبل الضيف عجلوا له بالطعام والشراب ليحصل العهد الذي يقود إلى قيام المضيف بواجب الضيافة، فإن أعرض الضيف عن الطعام وصد عن الشراب ألحَّ عليه المضيف إعذارا لنفسه مما قد يعد نقيصة بحقه تجاه ضيفه، فإن أبى لعذر يصطنعه طلب إليه أن يعرف بنفسه وأن يعطي ميثاقا وثيقا وعهدا أمينا يتفوه به شفاها يلزمه

بعدم الغدر والخيانة، فإن لم يفعل أقصي من الحي ونشر خبره بين القوم ليأخذوا حذرهم وجعلوا حراسهم متيقظين خشية أن ينال منهم.

فإن أكل الضيف من الزاد وتناول من الشراب وحصلت منه خيانة أو غدر عُدَّ بائقا وعقوبته مغلظة وتنقض شهادته لنقضه العهد الذي أعطاه لمضيفه بعدما طاعم زاده واستساغ شرابه وتفيأ ظلاله فيكون جزاءُه عقابا له وعبرة لغيره.

و"الملحة" كعهد وميثاق تحصل في أي مكان، فلو حصلت في الخلاء خارج المضارب لوجبت وتشمل جميع أهل الحي إن حصلت من أحدهم بحكم الجيرة وتكون "الملحة" بأيسر الطعام وأقل الشراب والقهوة أول "الملحة".

القهوة

﴿٥﴾

تعد القهوة من القيم الراسخة عند أهل البادية، عليها يجتمعون نهارهم، وحولها يتسامرون ليلهم، وعنها يتفرقون، فيها اجتماع أمرهم، وبها قضاء حوائجهم، وهي أول إكرام الضيف وآخر ما يودع به، لا يكاد يخلو منها بيت، يُقَدَّم وجودها على سائر الحوائج، تدار من اليمين، وتعطى باليمين، وتؤخذ باليمين، وحدُّها ثلاثة فناجين يؤخذ على ثلاث رشفات، لا يستكبر صاحبها أن يقف على رأس ضيفه وان كان دونه في المنـزلة، ولا يستكثر الضيف أن يتناولها ممن هو فوقه.

وتصنع القهوة من أجود أنواع "البن" وأفضل أصناف "الهال"، يختار البن ذو الحبة الكبيرة الخالية من الكسور والذي يميل لونه إلى الخضرة الغامقة، وحب الهال الأخضر ذو الحبة الكبيرة الممتلئة غير متفتحة الغلاف ليبقى محتفظا بنكهته، توضع كمية من القهوة في "المحماسة" المحماة على النار، وهي عبارة عن وعاء مقعر سميك أملس السطح من الداخل، مصنوعة من الحديد المقوى، ولها ذراع ذو طول مناسب يتم الإمساك بها لتقي اليد من النار، وتتصل به بواسطة سلسلة حديدية "يد المحماسة" المصنعة من ذات المعدن ، طرفها الأمامي رقيق شبه مستدير ، ولها ذراع مساوٍ لطول ذراع "المحماسة"، يتم بواسطتها تقليب القهوة أثناء عملية "الحمس" للتحكم بدرجة التحميص، وما أن يميل لون البن إلى اللون الأشقر حتى يتم رفع "المحماسة" عن النار، ويستمر التحريك لفترة بالاستفادة من درجة الحرارة العالية التي تحتفظ بها

"المحماسة"، ثم يتم إفراغ القهوة، وعادة ما يتم استخدام ظاهر "الظبية" وهي وعاء يتخذ من جلد الغزال أو ينسج من الصوف على شكل "جراب" يعلق في "واسط" البيت تحفظ بداخله القهوة الطازجة، ثم توضع كمية من "البهار (حب الهال) في "المحماسة" بعيدا عن النار لتخليصه من الرطوبة بأثر حرارتها التي تحتفظ بها لسماكتها لتسهيل "سحنه" أي هشمه دون حد النعومة.

يوضع "حميس" القهوة في "المهباش" وهو أداة تستخدم "لسحن" القهوة و"البهار" خاصة، يصنع من جذوع الأشجار ذات الصلابة الشديدة كالبطم والبلوط، يتم نحته من الخارج ليأخذ شكلا اسطوانيا منتظما، شبه مخروطي من الأعلى، ينجف من الداخل من خلال فتحة تجعل في أعلاه، يتسع في العمق قليلا، يوشى من الخارج ببعض النقوش، ويغطى بطلاء يحول دون تشققه، ويُطوِّق فتحته إطار معدني عريض، عادة ما يتخذ من الفضة المحبرة بالزخارف، وله "يد" تصنع من ذات الخشب على هيئة عصا غليظة ، ثلثها الأسفل محسوم مساوٍ لعمق "المهباش" في الطول يسمى "المدق" يعلوه مقبض يأتي ما بين عقدتين يتم استحداثهما بالنحت، تحول السفلى ما بين يد صانع القهوة وفوهة "المهباش" وتزين النقوش ما فوق المقبض، يتخلل رأسها المخروطي ثقب عرضي، يجعل فيه نسع من جلد أو جديلة من خيط لتعليقها بواسطته في عمود "الكاسر" لتبقى نظيفة كي لا تعاب القهوة بتغير طعمها لحساسية تأثرها الشديد بالأطعمة والروائح، وعادة ما يتخذ "جراب" يحفظها مثلما يحفظ "المهباش" في "جراب" آخر.

ويحدث صانع القهوة أثناء "دق المهباش" صوتا متناغماً ينشأ عن تعاقب حركة "يد المهباش" مع جوفه وتعمد ملامستها لحواف الفتحة من الداخل يعتبرونها دعوة لرجال الحي، ويطلقون على ذلك الصوت اسم "ضَبّح المهباش".

وما أن ينتهي من "سَحْن" القهوة حتى يضيف المسحوق إلى "الطباخ" الذي يكون قد هيئ مسبقا قرب النار، و"الطباخ" عبارة عن "دلة" كبيرة الحجم مصنوعة من النحاس الأصفر، اسطوانية الشكل متسعة القاعدة مخصورة الوسط واسعة الفوهة، لها غطاء متحرك ثبتت قاعدته أعلى مقبض يتخذ من قضيب نحاس مطروق، يقابله من الجهة الأمامية "المصب"، وهو عبارة عن تجويف يمتد من طرف حافة "الدَّلة" العلوي للأمام وبشكل منحي إلى الأسفل قليلا، متسع شيئا ما من جهة البدن دقيق في نهايته، وتغطى من الداخل بطبقة من القصدير للحفاظ على خصائص القهوة ويجدد طلاؤها كلما تلاشى، وعادة ما تستخدم ثلاث "دلال" لصنع القهوة يطلق عليها اسم "معاميل" الأولى للقهوة "البكر" وهي التي تعد للشرب، والثانية "للتشريبة" وهي ناتج غلي "الحميل" في المرة الأولى بعدما استخدم في إعداد القهوة، والثالثة "للثنوة" وهو ما يحصل نتيجة غلي "الحميل" للمرة الثانية، و"الحميل" هو مسحوق القهوة الذي سبق استخدامه حتى إذا اطِّرح أسموه "حِثّل".

وأثناء عملية غليان القهوة التي تأخذ وقتا لإجادة صنعها يكون قد تم "دق" البهار ووضع في "البكرج"، لتضاف عليه القهوة، وهو وعاء مصنوع من النحاس أيضا ، اسطواني الشكل، قاعدته أوسع قليلا من فوهته، له مقبض مستقيم،

و"مصب" إلى جهة اليمين تسكب منه القهوة، وغطاء على شكل قبة في وسطها من الأعلى زخرف على هيئة طير أو هلال لتساعد في عملية فتحه لتضاف إليه القهوة، تزينه الرسوم من الخارج، وربما استخدمت "دلة" صغيرة بدلا منه.

وما أن يتم تجهيز القهوة حتى يحتسي صانعها "الفنجان" الأول، و"الفنجان" وعاء صغير بحجم ملء قبضة اليد مصنوع من الزجاج الأبيض الذي لا يشف، مفلطح الشكل، أعلاه متسع عن قاعدته، ناصع البياض من الداخل مزخرف من الخارج، ويجب أن يستخدم فنجان نظيف خال من العيوب "كالشرخ"، وهو كسر متصل يظهر على شكل خيط في جسم الفنجان من الداخل، و"الشرم"، وهو "ثلم"، أي انكسار واضح في حوافه من الأعلى، وعلى صاحب القهوة أن يعتذر عن عيب الفنجان إن لم يوجد غيره، وعادة ما يتم استخدام من فنجان إلى ثلاثة فناجين لتقديم القهوة، ثم يقوم على رأس ضيفه ممسكا "البكرج" بيده اليسرى ويسكب في الفنجان بمقدار ما يخر صوت القهوة فيه، وعلى من تمد إليه القهوة أن يتناولها باليمين وهو معتدل الجلسة، وله أن يستزيد حتى ثلاثة فناجين، وان اكتفى قبل الثلاثة قام بهز الفنجان إشعارا بالكفاية، ويؤخذ الفنجان على ثلاث رشفات، ويبدأ صب القهوة من جهة يمين الجلوس ما لم يكن في المجلس ذو شأن، عندها يجعلها صاحب المنزل "شيمة" بينهم - أي تكريماً منهم لبعضهم -، فيشيرون عليه بمن يبدأ، وتصب القهوة للفارس راكبا، وللمتعجل واقفا، ويتم تجديدها كل يوم، وتجدد للضيف متى حضر بعدما يتناول ضيافته من القهوة التي سبق إعدادها وذلك زيادة له في التكريم.

وفناجين القهوة ثلاثة بأعراف أهل البادية، أولها فنجان "الضيف"، وهو الفنجان الأول الذي يستقبل به الضيف، ولا يجوز له الامتناع عن شربه، إذ أن القهوة تعد من "الملحة" التي ينشأ عنها عهد بالأمان بين الطرفين، وفنجان "الكيف" وهو الذي يستزيده الضيف تشوقا للقهوة، والثالث فنجان "السيف" وهو الذي يخص به أحد الرجال لإنفاذ أمر صعب.

وإذا وضع الضيف الفنجان أرضا دون أن يشربه علم صاحب البيت أن لضيفه حاجة وعليه أن يقطع وعدا بقضائها ليشرب الضيف قهوته وإلا لحق المضيف من الذم ما يحذر، ولا تراق القهوة على الأرض، وعلى شارب القهوة أن يعيد الفنجان بيمينه إلى يمين من ناوله إياه وإلا لزمه "الحق".

القضاء العشائري

﴿٦﴾

يعتبر القضاء العشائري من الأركان الرصينة في أعراف أهل البادية، الذي يبنى على إشاعة العدل فيما بين أبناء المجتمع، فيحفظ حقوقهم المادية والمعنوية بحصافة وحزم، مما يجعلهم يحسون بالأمان على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وهو ركيزة من ركائز المجتمع يؤمن له الحماية من جهل الجهلاء وطيش النزقاء، لأن القضاء العشائري الذي يتصف بالشدة والغلظة، وإن كان لا يأخذ أحداً بجريرة سواه، إلا أنه في أحيان كثيرة يلزم "العصبة" بتبعات الجاني، فيجلون "مجلاه" ويغرمون "مغرمه"، لهذا تجد ابن المجتمع البدوي رزينا في أقواله، حصيفا في أفعاله، خشية وقوعه وإيقاع عصبته فيما تحذر عواقبه، ومع ذلك لا تخلو القبائل مما يستوجب مجالس القضاء.

ويقوم على القضاء رجال تميزوا بالحنكة والنباهة، والعدل والجرأة، والحكمة والرزانة، والحصافة والكياسة، وصدق القول واستقامة الخلق، وقوة الفراسة وسرعة البديهة، وتتأتى هذه الصفات للقاضي بالتجربة المبنية على المراس في الحياة، أو عن تربية في بيت قضاء بحكم الصلة، ويصنف القضاة رتباً ومنازل وفقاً لأنواع القضايا التي برعوا في الفصل فيها، فمنهم طفق ذكره بتفوقه في قضايا القتل ممن اصطلح على تسميتهم بقضاة "منقع الدم" ومنهم من ذاع صيته في قضايا "العرض" ومنهم أهل "الحقبة" وهم القضاة الذين يتتلمذ على أيديهم قضاة يفصلون في النزاعات العادية فيرجعون أحكامهم لفظاً إلى صاحب "الحقبة".

فإذا نشأت خصومة بين فريقين، ونال أحدهم من الآخر، فإن "عصبة" الجاني، وهم أقرباؤه الذين يرتبطون به بصلة الدم "بالخمس" أي حتى الجد الخامس، يلجأون إلى "الدخالة" على أحد الشيوخ، واضعين أنفسهم وأموالهم "بوجهه" لئلا يتعرض لهم "الموتورون" للأخذ بالثأر، وعلى "الوجه" أن لا يرفض "الدخالة" لما توجبه المروءة من الإصلاح بين الناس، فيُنزل "دخلاءه" منازل قومه، ويحوطهم بحمايته، فلا يلحق بأحدهم سوء وإلا قام بطلب "حق تقطيع الوجه" إلا إذا وقع الاعتداء خارج مضارب عشيرته، إذ يجب على "الدخيل" أن لا يغادر الحي، ويعمد "الوجه" فور "الدخالة" إلى أخذ "عطوة فورة الدم" من جهة الخصومة الأخرى تعطى "لثلاثة أيام وثلث" يتمكن خلالها "الوجه" من إلحاق أهالي الدخلاء وأموالهم بحمايته فيما يعرف "بالجلوة"، وما أن تنقضي هذه المهلة حتى يتوجه بأخذ "عطوة اعتراف"، وهي مهلة زمنية يحدد وقتها الخصوم تمنع اعتداء أي من فريق المجني عليه على "عصبة" الجاني، ويدفع لقاء هذه العطوة مبلغ من المال إما نقداً أو عيناً لذوي المجني عليه يسمى "فراش العطوة" ولا يتكرر مع تكرار "العطوات"، وكلما انقضت مدة "عطوة" قام "الوجه" بأخذ "عطوة" أخرى، وتسمى تلك "العطوات" مابين "عطوة الاعتراف" و"عطوة الإقبال" "عطوة إمهال" يسعى في أثنائها "الوجه" إلى الصلح بين الفريقين من خلال التقاضي، حتى إذا وافق ذوي المجني عليه على "القضوة " أخذت "عطوة الإقبال" يستعد خلالها الخصوم للتقاضي، ويجري ضمنها تخصيص القاضي من بين ثلاثة قضاة تتم تسميتهم، وذلك لإعطاء فرصة متكافئة لكلا الخصمين للاختيار دون إجحاف، بحيث "ينفل" فريق من الخصوم قاضياً -أي

يرفضه-، وتستخدم كلمة (تنفيل) تكريماً، بينما "ينفل" الفريق الثاني قاضياً آخر فيبقى قاض يتوجهان إليه.

حتى إذا صار الفرقاء في بيت القضاء، خلواً من كل سلاح، وكلا الطرفين في حماية القاضي، طلب القاضي من المتخاصمين دفع "الرِّزْقَة" وهي حق للقاضي تؤخذ نقداً أو عيناً كالأنعام تؤول ملكاً له من أحد ثلاثة وجوه، أما الأول فهو "رزقة هفو" بحيث تؤخذ من كلا الخصمين ولا يعود منها شيء لكليهما، وأما الثاني "فرزقة مبطل" وتؤخذ من "المفلوج" وهو المحكوم عليه في حين يسترجع "الفالج" -المحكوم له- ما كان قد دفعه، والثالث "رزقة محق" وتدفع من قبل من صار إليه الحق دون "المحقوق".

ثم يطلب القاضي "وجوهاً" على المتنازعين لتحصين القضاء، فينتدب كل فريق شخصاً يكون "وجهاً" عليه، لضمان تنفيذ حكم القاضي، ويسمى "الوجه" في هذه الحالة "كفيل وفا" من جانب المحكوم عليه يتكفل بإيصال حكم القاضي للمحكوم له، بينما يكون "كفيل دفا" من جهة المحكوم له يضمن حماية المحكوم عليه من تعدي المحكوم له، وفي العادة يكون "المدخول عليه"وجها" للدخيل، ويحق للوجه المنتدب أن يرفض الكفالة إذا علم من صفات نادبه عدم الالتزام.

ومن بعد يدعو القاضي مدعي الحق أن يتقدم لقول "حجته" أي (بينته)، ويجوز لأي من الخصمين أن ينتدب عنه من يقوم مقامه ممن يخبر فيه الفصاحة والبيان لدورهما في إثبات أو نفي التهمة لعجز العيي عن الإبانة، ويسمى المتكلم في هذه الحالة

"لساناً"، فيتقدم "المحتج" -الذي يقول الحجة- ويجلس أمام القاضي جاثياً ويبدأ في نطق "حجته" قولا شفاها موجزا بليغا بينا مضمنا إياها وصفا دقيقا لحادثة الجرم، مستنداً في تجريم خصمه على مخالفته الأعراف والقيم الاجتماعية التي تحكم حياة أهل البادية دون أن يتجرأ عليه بالإهانة لما تقتضيه هيبة المجلس واحتراماً للحضور، ولما يلزمه من "حق" تجاه خصمه، وما أن ينتهي من مقالته حتى يعود لمكانه ليتقدم الخصم أو من ينوب عنه فيلقي "حجته" هو الآخر دفاعاً عن نفسه إن كان بريئاً، أو مبرراً ارتكابه الجرم إن كان مقراً، ومتى خلص من قوله عاد الأول معقباً على "حجة" خصمه في حين لا يحق للخصم التعقيب لقاعدة في قضاء البادية تقول "الأول أبو حجتين".

وربما لجأ القاضي إلى الشهود لإثبات أو نفي التهمة على أن لا يعاب الشاهد من قبل أحد الخصوم لفعل كان قد اجترأه يبطل شهادته، أو ربما اضطر القاضي إلى تحليف المتهم، أما في حال عدم قبول خصمه اليمين مال به إلى "البشعة" التي يقوم عليها "المبشع" وهو رجل من درجة القضاة يتميز بقدرته الفائقة على استقراء الحالية النفسية، وحاذق في سبر أغوار المتهمين، وتنحصر مهمته في كشف الحقيقة أو تمييز المجرم من بين مجموعة المتهمين، فإن لم يتوصل إلى اعتراف الجاني لجأ إلى "البشعة"، وهي لسع لسان المتهم أو المتهمين بمعدن يحمى على النار إلى درجة الاحمرار أمام نواظر من يراد "تبشيعهم"، وغالباً ما تستخدم "يد المحماسة" لهذه الغاية، وبعدها يعود المتهم أو المتهمون إلى القاضي الذي ينطق بحكمه اعتماداً على تأكيد اتهام أو تبرئة "المبشع".

ولا يحق لأي من المتخاصمين رفض الحكم، التزاماً أخلاقياً من جهة، ولما يوثقهما من الكفلاء من جهة أخرىٰ، علىٰ أنه يجوز لأي منهما طلب مهلة محددة من أجل "سوم الحق"، إلا حكم "قاضي القلطة" أو "راع الحقبة" فإنه لا يتعرض للسوم، وهو لجوء الطرف الذي يعتقد تضرره إلىٰ استشارة من يطمئن لنصحه، فإما أن يقر بالحكم أو أن "ينفضه" بالتماس حكم قاض آخر طلباً لدفع الحيف الذي يحس أنه لحق به، ولا يجد القاضي الأول حرجا في ذلك ويبدأ مجلس القضاء وينتهي كما سلف، غير أنه يجب في هذه المرة إنفاذ الحكم حتىٰ وإن كان أشد من الحكم المنفوض.

وبعد ثبات الحكم واستبيان "الحق"، وما يترتب علىٰ الجاني من تبعات مادية أو معنوية، ربما تنازل "صاحب الحق" عن بعض أو كل ما يتوجب له في ذمة خصمه، أو عما يلحق به من أذىٰ، مكتفياً بظهور "حقه" إلا في بعض الجرائم فانه يتشدد فيما فرضه القاضي، وفي حال عدم قدرة "المحقوق" علىٰ الالتزام المادي فإن عصبته وأحياناً عشيرته تعينه في دفع المغرم إما بطريقة "العونة" كل من تلقاء نفسه حسب استطاعته أو من خلال فريضة علىٰ كل فرد من أفراد العصبة أو العشيرة، وإذا لم يتم الوفاء لجأ "المجرم" إلىٰ استجداء القبائل الأخرىٰ علىٰ أن يتم إيصال "الحق" إلىٰ صاحبه خلال مدة محددة بكفالة "كفيل الوفا".

الدَّخالة والجَلوة

﴿٧﴾

يتميز المجتمع البدوي بالحصافة والكياسة في التصرفات، لما تفرضه عليه مجموعة النظم الاجتماعية، والقيم السائدة، التي يتوجب على الجميع الالتزام بها، عرفا يستمد قوته من الأثر الذي يتركه انطباعا لدى أفراد المجتمع، ما بين الذي يستجيب للأعراف ويراعي واجباتها، فيجزل له الحمد ويغدق عليه الثناء، وذاك الذي يحاول الانفكاك منها والخروج على ضوابطها، فيرغم على قبولها فضلا عما يلحقه من الذم والتشهير.

ومن تلك الأعراف "الدخالة"، التي تحيق بأول الشر فتجعله في أضيق حدوده، وتحول دون استشرائه، جرَّاء سَوْرَة الغضب التي تجيش في الصدور، وما تولده من الحقد والضغينة في النفوس، وما قد ينجم عنها من التمادي في الغي والتطاول في الجهالة والإفراط في الاقتصاص.

ومعنى "الدخالة" أن يضع احدهم نفسه وأهله وماله أو "حقه" الذي يدعيه عند خصمه"بوجه" من يكفلها له، ويكون بها حقن الدماء وصون الأعراض وحفظ الحقوق وحماية الأموال ودرء المفاسد وإطفاء الأحقاد، مما يمكن أهل الخير والصلاح من السعي بين الناس بالإصلاح.

ويستجير "الجاني" من جناية ارتكبها بحماية أحد "الوجوه" تتبعه "عصبته"، وهم أقرباؤه الذين يتصلون معه بالدم إلى الجد الخامس، ويتم تحديد درجة القرابة باللجوء إلى "القص"، وهو تتبع فروع الذرية من الجد الأول للعصبة الذي يشكل "فخذاً" والاعتلاء في الترتيب بذكر طبقات المواليد الذكور وأبناءهم، فمن وصل إلى ما بعد الطبقة الخامسة فهو خارج من العصبة ولا تلحقه جريرة الجاني، ومن كانت منـزلته دون ذلك فهو "مطرود" أي مطلوب مثله مثل الجاني، ويقوم على عملية "القص" رجل عارف بالأنساب، يزكيه رجل على معرفة بأصول وفروع ذوي الجاني، فان أصاب "القصاص" أثنى على قوله، وان اخطأ رده إلى الصواب بشهادة.

وتستخدم "الشبرية" في عملية "القص" للدلالة على ثبوت الشخص في "العصبة" أو خروجه منها، إذ يمسك "القصاص" "الشبرية" بقبضة يده مشتملاً عليها بأصابعه الخمسة ونصلها إلى الأسفل، ويبدأ بذكر الطبقات من بعد الجد الأول الذي يعتبر أساس العصبة، فكلما ذكر طبقة أطلق إصبعاً مبتدئاً بالخنصر ثم البنصر فالأوسط فالسبابة فما دامت "الشبرية" في قبضته فالمعدود "مطرود" فإن عد طبقة أخرى وأطلق الإبهام سقطت "الشبرية" من يده فيكون الأخير ومن يتلوه في الطبقات خارج "العصبة" ويطلق عليه "طالع من الدم"، وقد يبقى أخوة له وأعمام ممن لم ينجبوا بحيث يرفعهم أبناؤهم طبقة في الجدود.

ويتوجب على "العصبة" إذا كانوا جواراً للخصوم "الجلوة" وهي الانتقال من "ديرة" ذوي المجني عليه إلى "ديرة" من صاروا في حمايته على أن يكون "الوجه"

في هذه الحالة من "ديرة" أخرى، أما في حال كون "الديرتين" – ديرة الجاني وديرة المجني عليه – متباعدتين فيبقى كل "حي" في حيه.

وتبقى "الدخالة" ما امتنع خصوم الجاني عن الصلح ، وتزول عن "الدخيل" إذا امتنع عن إصلاح خصومه أو الانسياق إلى مجلس "الحق" عندها تنفض دخالته ويعتبر "مشمساً" أي لا يظله مجير في حماه.

ولا تقبل "دخالة" القرابة لما ينجم عنها من محاباة طرف دون آخر، أو اللجوء إلى التسويف والمماطلة بالحقوق، مما يمنع صاحب "الحق" من "حقه"، وإمعاناً في النـزاهة يشترط في "الوجه" ما يشترط في القاضي أن يكون "خلي الشهوة" أي لا يأخذه ميل لطرف دون آخر لصلته بأحد الخصمين.

و"الدخالة" لها أشكالها وطرائقها، فإما أن تكون بسبب جناية اجتناها "الدخيل" فيسعى إلى من يجيره من جريرته، فان كان طريداً يتبعه غريمٌ سارع إلى من يؤمنه على نفسه، فان لم يعترض أحداً مال إلى أحد البيوت فيصير في حمى أهله متى صار في حماه، وحمى البيت حرمته، وحرمته محيطه، ومحيط البيت من أقصى أطول حبال الأطراف الأربعة ولمسافة مرمى عصاً بيد صاحب البيت، فيرتد عنه المطالب وان كان البيت خالياً، فان تعدى على "الدخيل" لزمه "حق تقطيع الوجه".

وإما أن تكون "الدخالة" لحيف لحق "الدخيل" من خصم، أو لتحصيل "حق" له عند غريم، وتكون باللجوء إلى من ينصفه برد الظلم عنه أو تحصيل ما يدعيه

من ذمة من يدعي عليه، ومن أشكالها أن يعقد "الدخيل" طرف منديل رأس "الوجه" فيتوجه "المدخول عليه" من فوره إلى غريم الدخيل ويطلب منه أن يحل العقدة التي في طرف منديله قبولاً بوفائه لخصمه.

وللجاني أن يدخل على الخصم، إما متخفيا أو مخالساً فمتى صار في بيت خصمه عمد إلى وضع عقال رأسه في رقبته جاثياً أمامه علامة على الاعتراف بجريرته والانقياد للحق الذي يطلبه، أو أن يحتضن عمود البيت، وإن كانت جريرته كبيرة لجأ إلى "المحرم" وهو "الشق" من البيت المخصص للنساء فدخله، أو أن يلقي بنفسه في فراش أولاد خصمه، ويعتبرها أهل البادية من أصعب أنواع الدخالات، فلا يملك صاحب الشأن إلا التساهل مع "الدخيل" ، ومن "الدخالات" التي لا ترد، إدخال الجاني الصبية والنساء على خصمه.

وللرجل أن يُدخل من يعتقد أنه لحقه الحيف دون اللجوء إليه، فيصير في حمايته إلى أن يتبين أمره، والرجل يُدخل المرأة من زوجها والولد من أبيه والعبد من سيده، والمرأة تجير بحمى زوجها، والبنت باسم أبيها والعبد على سيده.

والرجل يُدخل نفسه على "ذي جاه" دون علمه، فيكف عنه الغريم، ويأمن على نفسه حتى يصل من استجار به.

ويسعى "الوجه" إلى الصلح ما بين "دخيله" وخصمه، فان أبى الخصم طلب إليه الانسياق إلى مجلس القضاء، فان عاند ألزمه من خلال عصبته، فان لم يذعن أجبره

على ذلك من خلال "سوق" ماشيته وجعلها رهينة عند أحد "القضاة" وتعاد إليه بعد الحكم وإيفاء الخصم حقه منها.

والضيف في حمى مضيفه ما دام مقيما، فان غادر الحي بقي في الحمى لمسافة "مرحال" وهي المسافة التي يقطعها "الظعن" من مكان رحيلهم إلى مكان نزولهم، وتقدر بمسير نصف يوم سيرا ليناً.

الضيف عند أهل البادية

﴿٨﴾

للضيف عند أهل البادية منـزلته الرفيعة ومقامه العزيز، يثوبون لإكرامه ويتسابقون لإيفائه حق الضيافة خوف أن تلحقهم مذمة التقصير وتلتصق بهم سُبةٌ لا تفارقهم الدهر إن هم تقاعسوا عن الاحتفاء به، أو تهاونوا فيما ثبت عرفا في المجتمع البدوي من واجب إكرام الضيف، ولئن كانت عادة الكرم عند أهل البادية حاجة فرضتها قسوة الطبيعة وبعد المسافة وشقة السفر التي تحوجهم إلى إقامة الأود وضرورة التزود إلا أنها تحولت إلى عادة يواظبون عليها وقيمة اجتماعية يحرصون على التمسك بها ويلتزمون بالتشبث بها إلى أن ثبتت في نفوسهم قرارةً وتملكت تلابيبهم إلى حد الاستهواء فأوقدوا النيران في حلكة الليل الدامس ليستدل بها الطارق التائه، وأطلقوا أصواتهم في القفار الموحشة يستجلبون بأقصى حناجرهم الضيفان على الزاد والمبيت.

فالكرم إحدى وسائل التضامن الاجتماعي التي ترسخت مع الزمن حتى صارت من أخلاقهم التي تميزهم عن غيرهم من المجتمعات التي تختلف ظروف معيشتهم وتتباين سبل عيشهم عن تلك التي تحيط بحياة البداوة.

فإن أقبل الضيف قاموا له واستقبلوه عند مقادم منازلهم وهشوا بوجهه وزادوا في الترحاب به وحفوا به إلى أن يأخذ مجلسه حسبما يشير به عليه صاحب المنـزل الذي لا يتوانى عن القيام على راحة ضيفه إمعانا في الإكرام دون النظر إلى سنه أو مقامه ،

فيسبق إليه بالماء ثم يقف على رأسه بالقهوة ومن بعد يعجل له بالزاد قبل وليمة الضيافة التي يُدعى إليها رجال الحي الذين يتناوبون الإيلام له طيلة فترة إقامته يعود بعد كل وليمة إلى بيت مضيفه الأول الذي لا يسأله عن حاجته إن لم يبدأها بنفسه قبل مرور ثلاثة أيام وثلث اليوم الرابع وهذه المدة ومثلها أولى عطوات قضايا "الدم" و"العرض" التي يطلق عليها عطوة "فورة الدم" ضرورة لهدوء النفس وامتلاك ناصية الصواب بعيدا عن الاضطراب الذي يفضي إلى اللجاجة ويحول دون قضاء الحاجة .

ويكرم الضيف من ميسور الطعام الذي لا يقدم شديد الحرارة إذ تعد من إمارات البخل أو مالحا فوق حد الذوق أو خالٍ من الملح مما تستشعر معه "البوقة" وعلى الضيف أن يأكل بيمينه وبأوائل أصابعه إن كان طعامه ثريدا دون أن تمتد اليسرى إلى الطعام ، وعلى المضيف أن يواكل ضيفه فيتمهل في أكله فلا ينهض عن الطعام قبله كي لا يعجله، ومن حسن إكرام الضيف حسن محادثته دون لجاجة ، وملاطفته ما لم تبدو منه فجاجة ، فعلى المضيف أن لا ينبو بكلامه في محادثة ضيفه ولا أن يبدي ضَجَرا من حديث الضيف ما دام متأدبا في قوله حصيفا في كلامه، وليس للمضيف أن ينهر طفلا أمام الضيف أو يصيح بامرأة أو أن يظهر غضبا على غلام ، فإن فعل إحداها يكون قد أبدى شائنة تشعر الضيف بالضيق منه مما قد يعجل برحيله وهو أمر تُخشى سمعته السيئة على المضيف الحريص على طيب الذكر وحسن الثناء من ضيفه الذي سيحدث بما لقي في ضيافته من القوم الذين حلَّ عليهم، فإن حدَّث بطيب صنيع طفق صيتهم وإن قال بما يشينهم لحقتهم المذمة التي منها يأنفون وهم على حميد المناقب يعولون ، فإن غادر الضيف زودوه بما يعينه على سفره من الطعام والشراب

وهو بحمىٰ مضيفه مسير نصف نهار ليأمن علىٰ نفسه ما لم ينـزل ضيفا علىٰ قوم آخرين فيصير بحماهم.

وزيادة في إكرام الضيف يكرمون ركوبته، فيقدمون لها طعامها وشرابها وهي أمام عينه لا تغادر مربطها إلا لحاجة صاحبها، فلا تسوم مع ركائبهم ولا ترد الماء مع مواشيهم خشية أن تدخل في نفسه ريبة، ويحوطونها بالعناية فوق ما يحيطون ما لهم من الخيل والإبل، وإن كان معه ماشية خَصُّوها بأخصب مراعي مواشيهم وأفردوا لها من يقوم علىٰ العناية بها، فإن طالت إقامته فوق مدة الضيافة تولىٰ أمر ماله بنفسه دون أن يتخلوا عن إعانته.

وأهل البادية يجعلون ضيفهم منهم فيشركونه في شأنهم وقد يشير عليهم ويأخذون بمشورته علىٰ أنه لا يبادر الحديث في شؤونهم من تلقاء نفسه قبل أن يطلبوا رأيه الذي قد يأتي من قبيل إشعاره بالألفة، ومن أعراف البادية إكرامُ ضيفُهم للضيف الذي يأتي بعده إن غاب صاحب البيت فيقوم بواجب ضيافته من مال مضيفه لحصول " الملحة " التي تؤمن " البوقة " ولمثل درج عندهم يقول: (الضيف الأول يُعزِّب التالي) فيقوم علىٰ رأس الضيف الجديد بالقهوة ويقرب له الزاد الذي تجعله إحدىٰ النساء قرب الساترة ويجلس معه علىٰ الطعام لمآنسته، والضيف يجير الدخيل علىٰ صاحب البيت الذي يحل فيه، ورسخ في قيمهم أن الضيف ينفر مع أهل الحي الذين هو فيهم إن داهمهم خطر يرد عنهم كأحدهم دون أن يُستصرخ فإن قعد عن نصرتهم ربما استصرخوه فإن تخاذل وصف بالجبن.

وعلى الضيف أن لا يذم طعاما أو يعيب شرابا، ويتوجب على الضيف الالتزام بمجلسه الذي يشير عليه صاحب البيت فلا يتحول عنه إلى غيره إلا بإذن صاحب البيت، وليس له أن يخص أحدا بمجلسه الذي خُصَّ به، وعادة ما يكون مجلس الضيف مقابلا لمضيفه وظهره إلى ساترة البيت بحيث لا تصل عينه إلى المحارم، ولا يليق بالضيف الدعوة على وليمة أُعدت له فيكون كمن يجود من غير ماله.

ويزيدون في إكرام الضيف بإطلاق اسمه على مواليدهم إذا صدف قدوم أحد المواليد مع إقبال الضيف أو أثناء إقامته وربما طلبوا منه أن يطلق اسما على وليد أو وليدة.

الأسماء

﴿٩﴾

لأهل البادية طقوسهم المتوارثة عند قدوم مواليدهم ، فيباركون بقدومهم ويولمون لمقدمهم ، ويختارون لصبيانهم وبناتهم الأسماء التي تميزوا ببعضها عن غيرهم من المجتمعات ، إذ اشتهروا بأسماء قلما سمّى بها سواهم، ولربما أُستُدِلَّ على بداوة الرجل أو حتى على قبيلته من اسمه أو اسم أحد آبائه، ذلك أن لهم منحى خاصا في تسمية أبنائهم، فمن الأسماء التي يختارونها ما يوافق المناسبة ومنها ما يواتي الظرف وغيرها ما جاء تيمنا وتبركا، وسواها ما نذر للأعداء ليقذف الرعب في قلوبهم ويثير الفزع في صدورهم لقوة جَرّسها وصخب لفظها.

فخصوا أولادهم بما يبعث على التفاؤل من الأسماء مما اشتق من الفلاح، فأسموا "فلاح" و"مفلح" و"فالح" و"فليح" وفي التأنيث أسموا "فلحة" و"فليحة"، ومن السلامة قالوا "سالم" و"سليم" و"سلمان" والإناث "سلمى" و"سليمة" على التصغير و"سالمة" على القياس، واشتقوا من الرشد مثل "راشد" و"رشيد" و"مرشد" و"مرشود" تذكيرا، و"رشدة" تأنيثا، وأخذوا من العَوّد أسماءً لأبنائهم فأطلقوا اسم "عيد" و"عايد" و"عودة" و"عياد" و"عيادة" وأسموا بناتهم "عيدة" و"عويدة"، وعلى الرجاء قالوا "رجا" و"مرجي" و"راجي"، تذكيرا، و"رجوة" و"فاطمة" تأنيثا وترخيما قالوا "فاطم" وتصغيرا "فطيم"، مثلما أسموا بأسماء تدل على الكرم والمروءة مثل "كريم" و"كريِّم" و"أجود" و"زبن" و"غانم"

و"ناصر" و"نصار" وبما يستدل منه على الحكمة مثل "فيصل" و"حاكم" و"عايظ" و"عياظ" وسموا بالكرائم فقالوا "عقيل" و"عقايل" وفي التأنيث "عقيلة".

كما أسموا بأسماء تتضمن معاني الفروسية والشجاعة مثل "فارس" و"فرّاس" و"سيف" و"سياف" و"رمّاح" و"طعان" و"ضرَّاب" و"مجالد" و"جلاد" و"مهاوش" و"هواش"، وأخذوا من الجوارح أسماءها فأسموا "صقر" و"عقاب" و"شاهين" و"باز"، وأطلقوا أسماء السباع على أبنائهم فقالوا "حيدر" و"نمر" و"فهد" و"ذيب"، وتعدوا إلى صفاتها فأسموا "كسار" و"مكاسر"، وذهبوا إلى أسماء توحي بالصلابة لما في ذكرها من المهابة والوقع على أذن السامع فأسموا "عناد" و"مكازي" و"مناكد" وبما يدل على الجسارة فقالوا "جاسر" و"طراد" و"كاسب" وزادوا في المبالغة فأسموا "جسار" و"كساب" و"طرَّاد" و"طلاع"، ولحروبهم اختصوا أبناءهم من الأسماء بما يغيظ الأعداء ويبعث الخوف في نفوسهم مثل "مغيظ" و"غياظ" و"طحيمر" و"طريخم" و"خريميمط" و"هجهوج" و"دواس" و"هديرس" و"مريدس" و"صفوق" و"فدغاش" وكان من عادتهم أن يسموا أبناءهم على أسماء الفوارس والنجباء والكرماء ممن ذاع صيتهم وطفقت شهرتهم مثلما أطلقوا أسماء سلفهم على خلفهم تخليدا، واستخدموا صيغ المبالغة في تسمياتهم للتفخيم كما استخدموا صيغ التصغير للتحبب فقالوا "ربّاع" و"ربيِّع"، و"جفال" و"جفيِّل"، و"عواد" و"عويِّد".

ومن الأسماء ما كان يلتصق بأبنائهم لمناسبة أو زمن ولادتهم، فمن ولد في أحد المواسم اكتسب اسمه منه، فسموا بالفصول والأنواء مثل "صافي" و"صيفي" و"ربيع" و"شاتي" و"شتيوي" و"ثلجي" و"ثلاج"، وتأنيثا "شتوة" و"مطرة" و"ثليجة"، وسموا بعوارض الأنواء فقالوا "مقرن" و"رعد" وبصوت الرعد "هزيم"، كما سموا بمنازل القمر مثل "بدر" و"هلال"، وأنثوا القمر لفظا وسموا به تشبيها فأطلقوا اسم "بدرة" و"هلالة" ونسبوا إليه فأسموا "بدرية" وجمعوه فكانت "بدور"، وإذا كان قدوم المولود وقت قد حطوا في منـزل جديد أسموه "منيزل" و"نزال" أو "نزلة" و"نزيلة" تأنيثا، وإن كان قدوم المولود وقت كانوا هموا بالرحيل أطلقوا عليه اسم "رحال" أو "ارحيل" أو "مريحيل" وعلى الفتيات "رحلة" أو "رحيلة". وأما أولئك الذين توافق موعد ولادتهم مع حادثة ما أو مناسبة فكانوا يسمون بها مثل "حربي" و"محارب"، وفي التأنيث "حربة" و"حريبة" إذا ولدوا وقت حرب، و"غازي" تذكيرا و"غزوة" و"غزية" تأنيثا لمن ولد وقت غزوة.

وكانوا يسمون غلمانهم بأسماء يتفاءلون بها، وأغلبها ما اشتق من (السعد) و(البركة) لأنهم أول ما كانوا يصطبحون بهم، فكرهوا أن ينادوهم بما غلظ من الأسماء أو تجافى منها لثقلها على السمع ولوقوع حسن الفأل في نفوسهم فأسموا "سعيد" و"أسعد" و"اسعيِّد" و"سعود" و"مسعود" و"مبارك" والإماء "سعدى" و"سعدة" و"سعيدة"، كما كانوا ينادون من لا يعرفون من الغرباء بما استحسن من الأسماء تلطفا كي يستأنس لمناديه فلا تدخل نفسه الريبة ولا يأخذه الشك مما قد يخشى على نفسه.

وانتقوا لبناتهم أسماءً من مفردات تطرب الأذن لسماعها وتهفو النفس لذكرها ، فأسموا بأرق الأسماء وأعذبها وتلمسوا منها ما كان سامي المعني رفيع المقام مثل "ميثة" و"نَزْهَة" و"رِشْدَة" و"رِفْعَة" و"صبحا" و"وضحا" و"سعدى" و"العنود" و"الهنوف"، وأسموا بالكواكب والنجوم فقالوا "ثريا" و"نجمة" و"شمسة"، كما أسموا بالأنواء مثل "شرقية" و"غربية" و"صبا"، واستحبوا أسماء طرائد الفلا فأطلقوها على بناتهم فقالوا "غزالة" و"غزيِّل" و"عنيزة" و"الريم" و"مها"، وأسموا بما استحسنوا من النباتات مثل "خُزامى" و"نفل" و"شيحة"، وسموا بالنفائس فقالوا "ذهيبة" على التصغير و"فضة" على القياس و"محاري" على النسبة للمحار. وقد وقفوا على تاء التأنيث التي تلحق جميع الأسماء، مذكرها ومؤنثها هاءً.

ومن الأسماء ما كانت تهدى إلى المواليد من قبل ذوي الأرحام كالأخوال والأعمام أو ذوي الجاه فيطلق اسم أحدهم على المولود وإن كان أهل المولود يتحرجون في بعض الأحيان من قبول الاسم، كما كان من عادة أهل البادية أن يزيدوا في إكرام الضيف بأن يطلقوا اسمه على مولودهم الذي تتوافق ولادته مع إقبال الضيف أو أثناء إقامته بعد استئذانه.

ودرجت بينهم الألقاب بديلا عن الأسماء التي كانوا يقصدون إخفاءها في كثير من الأحيان لما يحيط بهم من المخاطر، فاتسعت شهرتهم بها أكثر من أسمائهم التي لم يعودوا يعرفون بها لغلبة الألقاب عليها، كما استخدموا الأسماء المضافة والشبيهة بالمضاف على سبيل الاتساع ليطلق الاسم على قوم بأكملهم وإن كان ينادى به فرد،

واشتهروا بهذه الألقاب والتشبيهات حتى طغت على أسمائهم الحقيقية وصارت عوضا عنها وتحولت مع الوقت نخوةً لهم، يرتجزون بها لاستثارة الهمم وقت الشدائد.

الانتخاء

﴿١٠﴾

"النخوة" لغة: الفخر والزهو والكبر، وانتخى فلان أي افتخر وتعظم –كذا في لسان العرب–، ونخا فلان فلانا إذا أثار الزهو والفخر في نفس من انتخاه، والانتخاء من النخوة، وهو اصطلاح شاع استعماله بين العرب في الشدائد، ودأب أهل البادية على ترداده فيما بينهم عند الملمات حتى غدا من أعرافهم، فبالانتخاء يكون بذل غاية الجهد وعزيز المال وترخص النفوس للوصول إلى الغايات التي يصعب التمكن منها بغير الانتخاء، فتتحقق المكاسب وتقضى الحاجات، فما أمكن الوصول إليه أو تحقيقه بغير النخوة عدل عن الانتخاء إلى أيسر السبل دفعا لما قد يلحق بمن يُنتخى، وإن وجد المرء عائقا يحول دون تمكنه من غايته لجأ إلى النخوة، وللانتخاء أغراضه ووجوهه وأوقاته التي لا تأتي عرضا، بل تحتمها الظروف التي توجبها الحاجة إلى النخوة.

ففي حروبهم كانوا يرددون اسم نخوتهم لإثارة الهمم في نفوس فرسانهم، وحثهم على الاستبسال في الدفاع عن حماهم، وزيادة الحمية في صدور رجالهم للرد عن حياضهم، تتردد النخوة على ألسنتهم فيما بينهم وقت السجال لحماية أموالهم ودفع الأذى عن حرماتهم، يطلقها أحدهم لحظة الشدة تذكيرا لهم بحقيقتهم التي يفخرون بها، كي لا يتهاونوا أمام أعدائهم، ولا يتقاعسوا في النـزال، فينال من هيبتهم، وتهان

كرامتهم، وتمس مكانتهم التي يبذلون أرواحهم رخيصة في سبيلها، ومن اسم الانتخاء يستمدون قوتهم، ويزدادون ثباتا في حومات الوغى.

والانتخاء يسبق الوقيعة، فيكون أثناء الاستعداد لها لدفع النفوس، وتحفيز الهمم، وإيقاظ العزائم، وشحذ الحمية، حتى إذا وقعت الواقعة ازدادت النخوة أثرا بين التلابيب، وأخذت مراجلها تغلي في الصدور، يرتجز بها كل فارس من جهته بصوت يزيد من الحماسة في نفوس فرسان قومه، ويثبط العزيمة في نفوس أعدائهم، وللنخوة وقعها في أفئدة أهلها، إذ تعتبر نبراسهم الذي به يهتدون وعنه يدافعون، ليبقى اسم النخوة جليلا في نفوسهم، جامعا لكلمتهم، يلتقون عليه، ويرفعونه فوق خلافاتهم الفردية، وأهوائهم الشخصية، تدفعهم إلى ذلك الغيرة على اسم الجماعة، الذي يجتمعون على أن يكون محصنا مما يثلمه.

فلكل قبيلة من القبائل نخوتها التي أصبحت رمز شهرتها، تقوم لها القبيلة حماسة، وتدافع عنها حمية، وتستبسل من أجلها غيرةً، فهي سلاح نفوسهم، وعدة عقولهم، وراية صيتهم، وصوت نفورهم، وهاجسهم الذي لا ينتزع من بين جوانحهم، بل يرخصون أرواحهم في سبيل أن يبقى اسم نخوتهم حصنهم المنيع الذي يلجأون إليه وقت يحسون بفتور العزائم وتراخي الهمم التي تؤدي إلى غلبة الأعداء، وعلى الرغم من تعدد أسماء الانتخاء، واختلاف رموزها بين القبائل، إلا أنها جميعها غايتها إثارة كوامن النفوس.

فانتخت بعض القبائل بعقائل نسائها، فالمرأة غرة الشرف، وأعلىٰ سنام الكرامة، فاحتلت منـزلة رفيعة، ومكانة عالية في نفوس الرجال، فصارت رمزا للفخر والافتخار للفرد والقبيلة، فالنساء عندهم مكرمات الأحساب، رفيعات الأنساب، مؤصلات الجدود، مصونات الخدود، فأولىٰ ما يدافع القوم عن الأعراض في الحريم والعقائل، فعن غررهن يذودون، وعند شرفهن يستميتون، فهن اللواتي يثرن العزم في نفوس الرجال، ويشددن الأزر إذا حمي السجال، تذوب الأرواح رخيصة حماية لأطراف أرديتهن من الدنس، فلا تناخ إبل الأعادي علىٰ أبواب مخادعهن، ولا تطأ سنابك خيل الغزاة حرمات خدورهن، ولا تمس نواصيهن بسوء، فانتخىٰ القوم باسم المرأة التي صارت رمزا للقبيلة.

وانتخت قبائلُ أخرىٰ بكرائم الإبل، التي استجادوا نسلها، وتخيروا نجائبها، فهي عدة حياتهم ووسيلة معاشهم، عليها يعولون، وبها يستعينون علىٰ قضاء حوائجهم، فمن ظهورها طعامهم، ومن ضروعها شرابهم، لا تستقيم حياتهم إلا بها، فصارت عماد وجودهم، فهي ركائبهم إذا نووا ارتحالا، ووسيلتهم إذا ابتغوا مزارا، فضلوها علىٰ غيرها من الركائب إذا بعدت الشقة، وأوجسوا المشقة، لصبرها علىٰ العناء، وتحملها بعد الأسفار، فهي الجلدة التي لا تكل عن المسير ولا تنوء بالأحمال، ولا تثقل عليهم في المؤونة، تجتر من سنامها إذا شح الطعام، وتصبر أياما علىٰ الظمأ، فوجدوا فيها بقاءهم، مما دعاهم للاعتناء بها واغتنموا قدرتها فصارت غايتهم إلىٰ مبتغاهم، فتفاخروا بأجودها وامتدحوا أحسنها، وأطلقوا عليها الأسماء ونعتوها

بالصفات، ولشدة اعتمادهم عليها واهتمامهم بها أضافوا أسماءهم إلى أسمائها وصفاتها ليعرفوا بها فخرا، فكانت نخوتهم.

ومن القبائل من جعلت نخوتها في أصائل الخيل التي قدموها في المنـزلة على غيرها مما يقتنون، واعتنوا بها فوق عنايتهم بباقي أنعامهم، وازدادوا حرصا عليها أكثر من حرصهم على المال والولد، فقربوا مرابطها منهم، وجعلوا أعنتها الأقرب إلى أياديهم، لما لها من مكانة توجبها الحاجة إليها، فهي أولى عدتهم إذا أغاروا لسبقها في السجال، ولين أعطافها عند القتال، وهي وسيلتهم لتخليص ما استلب منهم إذا أغير عليهم، فعلى ظهورها الكسب وعلى صهواتها النجاة، والفرس تعرف فارسها من اعتلائه صهوتها فتنقاد له دون شموص، مثلما تعرفه بشخصه فتهش له، كما تعرفه من صوته فتعطف عليه، ومن كرامتها عليهم عرفوها بأسمائها، وتتبعوا أنسابها، فاقتنوا أصائلها، ولم يحفلوا بهجائنها، وزادوا في إكرامها بأن نحوها عن الوسم، بل أكثر من ذلك جعلوها نخوة لهم كرمز من الرموز التي بها يفخرون.

ومن القبائل من انتخت بغير هذه أو تلك وتينك، بل نحوا منحى آخر في نخوتهم التي استمدت إما من إحدى صفاتهم الخَلقية، أو طباعهم الخُلقية، أو سجاياهم الحميدة، فأطلقت إحدى تلك الخصال على جموعهم من ذاتهم أو ممن وجد تلك الصفة غالبة عليهم، فصار يعرف بها أدناهم وأقصاهم وكأنها اسم لكل منهم يزدادون به فخرا، وقبائل أخرى اعتلى شرفها بأحد آبائها أو أبنائها ممن طفقت شهرته وذاع صيته، لطيب خصاله وجليل فعاله من كرم أو فروسية كسته حلة المجد والشرف

بين الأقوام، فصار مفخرة لقومه فاقترن اسمه بقبيلته وصاروا به ينتخون. ولبعض العشائر من فروع القبائل نخوتها التي لا تصل حد شهرة نخوة القبيلة وهذه لا تغفل تلك.

ولا يقتصر الانتخاء على الفروسية فحسب، بل يتعداها إلى قيم اجتماعية ذات مساس بحياة أهل البادية، كالكرم وحماية الجار وإعانة الملهوف ودفع التهم وطلب الحقوق ممن يمتنع من أدائها، فيلجأ "المنتخي" في هذه الحالة إلى "المنتخى به" فالأول ذو حاجة عاجز عن إدراكها، والثاني ذو شأن قادر على تحقيقها وهو ملزم بها بمعاضدة قومه لمكانته منهم لا ينكص عنها ولا يتخفون عنه، فالانتخاء بهذه الحالة أشبه ما يكون بالدخالة غير أنه لا يصل إلى حد القضاء، بل يتم السعي بالإصلاح بالود.

ومن النخوة ما يأتي لإثارة الحمية في نفس "المنتخي" ذاته عندما يحس بفتور العزيمة التي تأباها المروءة، فيرفع من عقيرته باللجوء إلى النخوة، ومنها ما يجيء من "المنتخي" لاستثارة العصبة الأدنين أو القرابة الدنية أو العشيرة أو القبيلة يستنهض هممهم لكسب نصرتهم المعنوية أو معونتهم المادية.

وينتخي الرجل بشأن نفسه بأخته اعتدادا بشرفها لما لموضع الشرف والدفاع عنه من مكانة رفيعة لديهم، كما للرجل أن ينتخي بأبيه تصريحا أو تلميحا افتخارا بصراحة النسب الذي له موقع الذروة في نفوسهم، وينتخي أيضا بابنه أو أخيه لقربهما من العصبة، وجرت عادتهم أن ينتخي أحدهم بيمينه لموضع الفعل، أو برأسه لموضع

العزة والأنفة، أو بشاربه لموضع الكرامة، أو بسلاحه لما في ذلك من الفروسية، ويأتي هذا النوع من النخوة أقرب ما يكون إلى القسم.

وهناك كلمات رديفة يستخدمها المنتخون من غير تلك التي شاعت تمييزا لهم، مثل كلمة (باطل) و (يا حيف) و (واحسافا) وقد تأتي هذه الألفاظ وما شابهها على وجهين، إما لإيقاظ الحمية في نفس قائلها، أو تأنيبا لمن يراد إعادته إلى الصواب وقت يرى منه غلواءه إلى الجهل، أو متى بدر منه ما لم يؤنس من الأفعال، أو حين يتناسى حقيقته وحقيقة قومه التي يسعى كل للحفاظ عليها من الإشانة والثلم ليرتد عن شططه.

وللرجل، وبدافع المروءة أن ينتخي لغيره من تلقاء نفسه، لإنفاذ أمر يخص من ينتخي له، ودون أن يطلب منه، فمتى أحس الرجل ذو المروءة بالحيف يلحق بأحدهم رفع الضيم عنه بأن يسعى إلى إصلاح حاله، أو تمكينه من حق يغمطه، أو دفع الغبن والحيف عنه، وقد قيلت في ذلك الأمثال، قالوا: (النخوة برؤوس الرجال لا برؤوس الجبال).

الأمثال

﴿١١﴾

الأمثال جمل مقتضبة في كلمات وجيزة، تطلق لتعطي مدلولا عميقا ينبئ بالمقصود، ومفهوما واضحا يطابق الحال بغير تأويل يتعدىٰ مقصده الذي يأتي أحيانا مطلقا علىٰ العموم، غير مقيد بخصوص، ومخصوصا أحيانا أخرىٰ ليوافق حال لا يتعداها إلىٰ سواها، وهي نتاج فكر نشأت عن الممارسة الشاقة في حياة السابقين الذين لم يتجاهلوا نتائج ما كان يعترضهم دون أن يأخذوا منها العبرة التي نضجت بالتجربة فتأكدت حكما رصينة ومفاهيم حصيفة توارثتها الأجيال المتعاقبة، فأخذوا بها اختصارا للزمن وتوفيرا لمعاناة التجربة التي سُبِقوا إليها والتي لن توصلهم إن ابتدأوها من جديد إلىٰ أبعد مما وصل إليه الأولون، ومن الأمثال ما جاء عفو الخاطر فاستحسنوه فصار مما يتردد علىٰ ألسنتهم، يطلقونه متىٰ وافق حالا.

والأمثال سائرة في جميع المجتمعات سيرتها في مجتمع أهل البادية الذي أخذها بحزم، ووظفها بقوة في جميع جوانب الحياة، حتىٰ صارت من قيمه السائدة، وأعرافه الراسخة، فأطلقت ثوابا علىٰ من أحسن صنيعا، وجاءت تأنيبا لمن قارف فعلا مشينا، وأتت حثا علىٰ الجميل، مثلما قيلت زجرا عما يستهجن، وزخرت بالحكم حينا، وفاضت بالتهكم أحيانا أخرىٰ، ولم تذر الأمثال بألسنة أهل البادية حالا من أحوال حياتهم إلا نطقت به وفاقا، ولم تدع جانبا من جوانب معاشهم إلا وجاءت مطابقة له، فطرقت أبوابا شتىٰ وأصابت أغراضا عديدة.

وقد جاءت أمثالهم موافقة لأحوالهم، فأهل البادية متريثون بطبيعتهم غير متعجلين، لا قولا ولا عملا، فقالوا فيما يستدل به على سجيتهم تلك (الرحمن ريِّض) والرحمن من أسماء الله الحسنى، وريِّض أي هادئ متمهل، وفي القول إشارة إلى خلق الله السموات والأرض على غير عجل وهو القادر على ذلك، والمثل يحث على الأناة والتبصر قبل الإقدام، فحريٌّ بالإنسان أن يميل إلى التريث لما فيه من التمكن لا أن ينـزع إلى العجلة التي تعقب الندم، وفي هذا من فيض الحكمة ما يشعر بأن إحكام الأمور لا يكون إلا مع التمهل، ومما يؤكد حرصهم على التثبت من سداد الرأي قولهم (الليل أسود ورأيه أسود)، لاعتقادهم بأن الرأي الذي يحاك بليل لا يأتي مبرما على النقيض من الرأي الذي يتم تدبره بالنهار فقالوا ضدا للقول الأول (النهار له عيون) أي أن رأي النهار يأتي عن رويِّة وثبات، وأثبتوا أن العجلة لا تأتي بنفع بقولهم (كثير النط قليل الصيد) وكلمة (النط) تعني كثرة الحركة، وفحوى المثل أن الصياد الذي يكثر من حركته يشعر به القنيص فيحذره فيعز عليه الصيد.

وفي الحكمة قالوا (الحر من طرف الزاد يذوق) أي أن الرجل الذي يتبع سبل الحكمة تكفيه بوادر الأمور لمعرفة عواقبها دون الخوض فيها إلى غاية منتهاها ليعلم نتائجها، كمتذوق الطعام الذي يغنيه أول تذوقه لمعرفة سائره، وفيما يتعلق بالاستغراق قالوا (درب السهل ولو طالت) لأن الدرب الوطيئة وإن طالت مسافتها مرجوَّةٌ سلامتها على النقيض من الدروب الوعرة التي وإن قصر طولها إلا أنها غير مأمونة الغوائل، وفي المثل من الدلالة على إتباع ما علم دون المجاهل، وقالوا في مباشرة الأمور والتثبت من انجازها وعدم التلكؤ (اشرب من رأس النبع) ومعناه مقاربة الأمر من

أصله، وقريبا منه قولهم (اللي ما يشرب بحفنته ما يروىٰ) والحفنة هي سعة الكف إذا جُمعت الأصابع إلىٰ بعضها بانبساط وإقبال علىٰ راحة اليد لاغتراف الماء، وربما ألصقوا كلا الكفين مع بعضهما لسرعة الارتواء، وهكذا كانوا يرتوون إذا وردوا الغدران والمناهل، ومعناه أن المرء لا يرتوي إلا إذا شرب بكفه ولن يرويه سقيا الناس له، وفيه حث علىٰ مباشرة الأمر وعدم الاتكال علىٰ الآخرين الذين لن يكون اجتهادهم بقدر اجتهاد المرء لنفسه وينطبق عليهم المثل القائل (فت الشبعان للجيعان فتٍ بطي)، و"الفت" تقطيع الطعام و"الجيعان" لفظ في "الجوعان" بلهجة أهل البادية و"بطي" أي بطيء، ويقصد بالمثل أن لا أحدا يحس بضرورة الحاجة إلا صاحبها الذي يتعجلها علىٰ النقيض ممن يمتلكها ومثلهم في ذلك كالشبع الذي يبطئ في إطعام الجائع، وألحقوا به المثل القائل (صبرك علىٰ نفسك ولا صبر الناس عليك) ومعناه أن يحتمل المرء شأن نفسه دون أن يثقل علىٰ غيره، وقريبا منه قولهم (عز نفسك تجدها) وفحواه أن من دفع نفسه عن موارد المهانة وجد إكراما، واستفاضوا في أن يدرك المرء قدر نفسه بقولهم (من قلَّط الرجال أخروه) وكلمة (قلَّطَ) استخدمت بمعنىٰ (قدَّمَ) وإن لم يأت لها معنىٰ مقارب في المعاجم، ومعنىٰ المثل أن من اعتاد تقديم الرجال علىٰ نفسه أخره الرجال لاعتيادهم ذلك منه، وفيه ما يوجب علىٰ الرجل عدم استقلال قدره بين أنداده، وقالوا (البل إن شافت الخيل تخزي الشيطان) و(البِل) لفظ في الإبل، أي أن الشارد من الإبل إن رأىٰ الخيل توقف عن الشرود لمعرفته بأنه لن يفوتها، ويقال للرجل الذي يتراجع عن غيه متىٰ رأىٰ من يدرك أنه يثنيه عنه لمهابته وجلال قدره.

وفي الحث على فعل المعروف وقضاء الحاجات قالوا (ما جاك إلا من يرجاك) و (جاك) أي (جاءك) و (يرجاك) أي يرجوك، ويحض المثل على قضاء الحاجة لطالبها لأنه لم يأت إلا راجيا الوفاء له لأمل ساقه إليك، وقريبا منه ما يحث على الكرم قولهم (الخير مرزوق) وتعني كلمة (الخيِّر) (الكريم) وفحواه أن الكرم يعود بالرزق على الكريم الذي يجود على ضيوفه، وقد قرن أهل البادية هذا المثل بمثل آخر يقول (الضيف رزقه معه) وكأنهم يؤكدون بأن الكريم ليس إلا وسيلة للإكرام لأنه لا يقدم من لدن نفسه شيئا فرزق الضيف يساق معه قدرا، وفي التيسير على مستقبل الضيف (درهن يفك رقابهن) و(الدرُّ) الحليب و(يفك) أي يعتق و(رقابهن) يقصد بها الشاء التي تختار منها الذبائح لإكرام الضيوف، وهذا المثل يقوله الضيف اكتفاءً باليسير تخفيفا على المستضيف، وقالوا (من وفر شيء عدُّهٌ جايبه) وكلمة (عدُّه) جاءت بمعنى (كأنه) و (جايبه) أي جاء به، وفيه من الإعذار من لدن الضيف للمستضيف من المبالغة بالتكليف، كما قالوا (الجود من الموجود) ويقال هذا المثل من المستضيف الذي يقدم لضيفه غاية جهده اعتذارا من تقصيره وإشعارا له بعدم البخل عليه بما هو فوق ذلك، وقد أنكروا ثقل الضيف بقولهم (يا ضيف ما كنت معزب) و(المعزب) صاحب البيت، وفي المثل تذكير للضيف الذي يثقل على مستضيفه بحاله عندما يكون مستضيفا، ووجدوا عذرا لمن يقصر بشأن أحدهم بقولهم (اللي ما يجود لك يجود لغيرك) وكلمة (اللي) بمعني الذي، وفيه من المعنى ما يلزم بعدم الاستغراق بالذم توكيدا على أن الذي لم يكرم شخصا لا ينفي عنه عدم إكرام غيره، وأكدوا على أن (من

فرش فراش قعد عليه)، أي أن من قدم معروفا لقي مثله، وفي المثل حث على اصطناع المعروف ونهي عن ذم الآخرين ما دام الذَّامُّ لم يفعل صنيعا يقابله به غيره.

وفي بسطة النفس والبعد عن الأنانية والنأي عن الادعاء وعدم غمط الناس حقوقهم والابتعاد عن التقليل من شأنهم قالوا (الفلاح مفرق)، ويقصد بكلمة (الفلاح) طيب الخصال وحسن السجايا والمعنى المراد من المثل أن المروءة بما تحويه من أسباب جامعة للخير مفرقة بين الناس وغير مقصورة على البعض دون غيرهم، فليس من بينهم من يدعي شيئا من الخصال الحميدة لنفسه وينفيها عن غيره لذا قالوا (ما فيه عود من غير دخان) ومعناه أن ليس من امرئ خالٍ من كل الخصال الحميدة فإن لم تجتمع فيه كلها صار إليه بعضها، ومثل الإنسان في هذا مثل عود الحطب الذي لا بد وأن يصعد منه دخان حين تأكله النار.

وفي عدم الرضا بما عليه المرء من الرزق والجاه قالوا (ما حدا راضٍ بقسمته والكل بعقله راضي) فالمرءُ في فحوى هذا المثل يسعى جاهدا للاستزادة من الرزق والارتقاء في الجاه لاعتقاده أنه حقيق بأكثر مما هو لديه من الثروة أو ما هو فيه من المكانة، ووسيلته إلى ذلك (عقله) الذي لا يقبل تبدله لرسوخ قناعته بسويته وإن كان لا يوصله بقصوره إلى آماله، وقالوا في تملك رغبة النفس، (ربيع النفس هواها) أي أن المرء لا ينثني عما مالت نفسه إليه وإن أمعن في نصحه، وفي الإعذار قالوا (النفس بدت على الوالدين) وكلمة (بدت) تعني أولى، وهي مأخوذة من الابتداء، أي أن المرء أولى بما لديه من والديه فكيف بمن هم أبعد، وفيه معنى دفع الحرج عن صاحب الحاجة من

طالبها، وأكدوا بأمثالهم على فضل القناعة ونبذوا سعة الطمع فقالوا (يرغي والشطر بثمه) والرغاء صوت عامة الماشية، وفي المثل يقصد به صوت الرضيع من أبناء الشاء، والشطر أحد شقي ضرع الشاة، و (ثمه) وتلفظ بهمزة خفيفة ممالة بلهجة أهل البادية، أي (فمه) بإبدال حرف الفاء من (فم) ثاءً كما فعلوا في حرف النسق (ثُمَّ) حين أبدلوا ثاءه فاءً فقيل (فُمَّ) واستخدم بذات المعنى، ومعنى المثل أن الطمع يدفع المرء إلى طلب المزيد قبل تحقيق حاجته، كالرضيع من البَهَمِ الذي يديم الثغاء والرغاء مع مواصلة الرضاعة وكأنه غير مقتنع بكفاية قبل أن يصل إلى النهاية، والمثل يمقت سوء الطمع وسعة الجشع ويحض على القناعة.

وفي المساواة بين الأنداد قالوا (آذان فرس سباق) لأن الفرس أثناء العدو ترسل بكلتا أذنيها إلى الأمام فلا تتقدم إحداهما على الأخرى كما لو كانت صافنة فإنها قد تحرك إحدى الأذنين إلى الأمام والأخرى إلى إحدى الجهات الأخرى لترهف السمع عند سماع الأصوات، وفي التصافي بين الخصوم قالوا (اللحى من اللحى نظاف) ويقصدون به ذهاب وغر الصدور وحنق النفوس، ويرمزون بكلمة (اللحى) مفردها (لحية) إلى الرجال، ذلك أنهم كانوا عندما يحز بهم أمر يردون أيديهم إلى لحاهم قابضين عليها استذكارا لرجولتهم، ومن عادتهم تلك جاء مثلهم القائل (احتاجت المرد قضب اللحى) و (قضب) تصحيف (قبض) وتستخدم بمعناها، والمرد جمع أمرد وهو الشخص الذي لا ينبت الشعر في وجهه، فإذا رد الملتحون أيديهم إلى لحاهم وقت الشدة احتاج الأمرد إلى فعل ما يفعلون فأعوزه ذلك، ويقال المثل عندما يشتد الكرب بأحدهم وتعوزه الوسيلة مستنجدا بمن يعينه، كما قالوا في قصر الشر وعدم التمادي في

الغي (الخلا بين الغانمين حجَّاز) و(الخلا) مقصور (الخلاء) وهي الأرض الخالية من الآهلين، و (الحجَّاز) الذي يفصل بين المتخاصمين وقت الشجار قصرا للشر ويسعى بينهم بالإصلاح، فاعتبروا في مثلهم هذا أن التقاء المتخاصمين في الأرض الخلاء مدعاة لكل منهما أن ينثني عن الآخر كي لا يتماديا في الغيِّ والجهالة، دون أن تلحق بأحدهما سبة لانصرافه عن خصمه، بل اعتبروه من الرشد والحكمة.

وقالوا في امتداد العرق وتوارث الصفات (الدم قتَّال)، ويقصدون بكلمة (الدم) وراثة الخِلْقَةِ التي تنتقل من السلف إلى الخلف، فتأخذهم فراستهم لنسبة الولد لأبيه والبنت لأمها اعتمادا على الخِلْقَةِ، وأكدوا انتقال الخُلُقَ بقولهم (بنت الخواضة خواضة مثلها) و (الخواضة) الناقة التي تخوض الماء وتجتازه حين تحجم بقية الإبل عن ذلك مهابة، وفيه توكيد على انتقال الطباع وتمكن الخصال وراثة، ونقضوا ذلك عندما استهجنوا خلاف المعتقد عندهم، فقالوا لمن نزل عن منـزلة أسلافه (النار تخلف رماد)، فشبهوا السلف بالنار التي ينتفع بها ويُجتمع حولها وخلفه بالرماد الذي لا يستفاد منه، وأثبتوا ذلك بحقيقة لا تنقض بقولهم (تراب الجورة ما ملاها)، و (الجورة) الحفرة التي تصطنع، وهناك حقيقة تؤكدها التجربة بأن التراب الذي يستمل من الحفرة لا يكاد يملأُها إن أعيد إليها مع ما يكون قد اعتراه من التفكك جراء الاحتفار بخلاف ما كان عليه من التماسك قبل ذلك، ويقصدون بالمثل أن الولد لا يملأ مكان أبيه وهو نسله وربيبه كما التراب الذي ينقص مقداره عن مكانه الذي أخذ منه.

وفي المواساة قالوا (من خلَّف ما مات) فاعتبروا الولد خلف أبيه وامتدادا له يُبقي ذكرَه وصنيعَه، فيكون الميت كأنه حي بولده، وفي التعزية ضربوا مثلهم (كم ناقة شربت بجلد حُوارها) والحُوار ابن الناقة، وكان أهل الإبل إن مات أو نحر فصيل إحدىٰ النياق أخذوا جلده واصطنعوا منه مشربا لماشيتهم، بأن يحتفروا حفيرة ويضعون الجلد فيها وهو لين فيأخذ هيئة الحفرة إذا جفَّ، ويستعملونه بعد ذهاب زهومته كي لا تعاف الإبل الشرب منه لرائحة الدهن، فيسكبون الماء فيه فيمسكه من أن يغور في الأرض، فتسقىٰ به قطعانهم ومن بينها أم الفصيل، وفي المثل إقرار بحكمة الموت الذي يأتي علىٰ الأقدار لا علىٰ الأعمار، وقالوا في قصر العمر بعد الشباب (شمس تالي نهار) وكلمة (تالي) تعني آخر، وفي المثل توكيد علىٰ أن العمر يزول بسرعة غروب الشمس إذا انكفأت عن كبد السماء، فالنصف الثاني من النهار يكون أسرع ذهابا من أوله.

وقالوا تهكما (يشوف الزول ويقص الأثر) و (يشوف) أي يرىٰ و (الزول) شخص المرئي، و (القص) تتبع الأثر الذي هو مواطئ القوائم، ويضربونه للذي يجهد نفسه بأمر واضح لا يحتاج فهمه إلىٰ عناء، مثل الذي يتتبع الأثر وهو يرىٰ شخص صاحبه، ومثله قولهم (يا شايف الزول يا خايب الرجا) وكلمة (خايب) أي (خائب) بتحويل الهمزة إلىٰ ياء، و (الرجا) مقصور (الرجاء) أي الأمل، ومعناه أن علىٰ المرء ألا يغتر بالهيئة التي قد تؤخذ بالمهابة قبل الاختبار، فإذا اختبرت وتبين قصورها جاء المثل مطابقا للحال.

وجاءت بعض أمثالهم تحتمل النقيضين، فقالوا (غاب وجاب)، ويقال على وجهين، مدحا لمن جاء بغنيمة بعد غيبة، وتهكما لمن طالت غيبته وعاد صفر اليدين، ومثله قالوا (من طوَّل الغيبات جاب الغنائم) ويؤخذ على وجهين أيضا، فمن عاد بغنيمة بعد طول غيبة مدح بهذا المثل، ومن عاد خالي الوفاض ذُمَّ به، وبين هذين المثلين قالوا في السلامة، (كحيلة وعادت لمربطها)، و (كحيلة) اسم فرس كانت قد فقدت، فلما يئس منها وجدوها تقف في مكانها الذي اعتادوا ربطها فيه، فأطلقوا المثل لمن عاد بعد غيبة تستدعي اليأس.

واستجادوا النار واستأنسوا بها فامتدحوها بعينها، وأثنوا على موقدها فقالوا (النار الزينة ولا المعزب الردي) و (الزينة) تأنيث (الزِّين) الذي هو الحسن، ومقصودهم هنا النار الوافية التي يستحسن حطبها فتجود جذوتها فتبعث عند إيقادها الأنس في النفس، لأن أهل البادية يستأنسون بإيقاد النار، ويقصدون بكلمة (الرديء) محذوفة الهمزة تليينا، أي الذي لا يحسن استقبال الضيف ويقصر في إكرامه، والمعنى أن الاستئناس بالنار التي تلك صفتها عند من لا يملك قرى الضيف خير من النزول على من يقدر على الإكرام ويقصر فيه، وقالوا أيضا (قِربة مخزوقة) و (القِربة) وعاء يتخذ من جلد الماعز لجلب الماء، و (مخزوقة) أي مثقوبة، والمثل كناية عن عدم جدوى الخوض في الأمر المخصوص بالمثل مع الشخص المعني به لعدم التمكن من إحكامه، مثله في ذلك مثل القربة المثقوبة التي لا تمسك الماء مع شدة الحاجة إليه، وقالوا في الماء (أهون موجود وأعز مفقود) وأوله لغز، ودرج مثلا يقصد به الاستهانة بالشيء عند وجوده، فينظر إليه على أنه لا ينفذ، فإن فقد صار عزيزا يجد في طلبه بكل جهد وغاية

الاحتطاب

﴿١٢﴾

النار عند أهل البادية لا يخبو سناها، ولا تنطفئ جذوتها، يوقدونها مع الصباح، وتبقى متصلة الوهج حتى آخر الليل، فإن انتهت ليلتهم ونووا المبيت عمدوا إلى إملالها بالوقود الذي يبقيها حية حتى صباح اليوم التالي، وذلك بأن (يفهدوا) نار الأمس، أي يفتحون كومتها من منتصفها، ويجمعون جمرها المتقد إلى وسطها ثم يضيفون كما جديدا من الوقود يغطى مع الجمر بالرماد بإحكام ليمسه الجمر على مهل دون أن تشب النار فيه اشتعالا لانعدام مدخل للريح الذي يبعث على الاحتراق، فإن أصبحوا كشفوا عنها ليجدوا اتقادا يزيدونه حطبا فيستشيط لهبا.

وأهل البادية يستجيدون الحطب من نبت تسري فيه النار وئيدا، ويمكث جمره طويلا، ويتخيرون الوقود، بحيث لا يأكله اللهب سريعا كالهشيم الذي تذهب حرارته متى ذهب وهجه ولم يستخدموه إلا لإسعار النار أول إيقادها، ويتحاشون ما يصعب احتراقه فيكثر دخانه ويقل دفئه، فيكون النفع منه أقل من معاناة إيقاده، والحطب عندهم لا ينفذ، يتزودون منه حاجتهم في مواسم الاحتطاب التي تمتد طوال أشهر الصيف حتى أواخر الخريف، تعمل على جمعه "الحطابات" واحدتهن "حطابة" وهن النسوة اللاتي يلتقطن الحطب من "المحاطب" مفردها "محطاب" وهو المكان الذي يلتمس فيه الاحتطاب.

تعد "الحطابات" عدتهن للاحتطاب ليلة يتفقن على موعد الخروج، فإذا كان صباح ذلك اليوم خرجن جماعة للاستئناس والاستعانة ببعضهن، يصطحبن معهن أدوات الاحتطاب، كالحبال لحزم ما يحزم، و"الشلفان" واحدها "شليف" وهو وعاء من النسيج على شكل كيس غير أن فتحته في عرضه يعبأ فيه ما يلتقط مما لا يمكن حزمه بالحبال، ومن أدوات الاحتطاب "القدوم"، وهو فأس صغير، أحد نصليه طويل مدبب يستعمل للحفر، وطرفه الآخر عريض حاد يستخدم للقطع، ويتزودن ليوم الاحتطاب ما يكفيهن من الطعام والشراب إذا كان يومهن سيمتد إلى المساء، أو اكتفين بالماء إن كنَّ ينهين عملهن في وقت أبكر، فإن وصلن "محطابهن" تفرقن في "المحطاب" على أن يبقين على مرمى النظر من بعضهن ولا تتجاوز المسافة بينهن مدى الصوت، ليجتمعن عند الإشارة أو النداء.

فإن كانت الغاية من احتطابهن التقاط "الجلَّة"، وهي مخلفات الدواب بعد جفافها، أو "حرز" الإبل وهو بعرها، قصدن أرضا سبق ارتياد القطعان لها، واستخدمت كل "حطابة" مخلاتها لجمع ما تلتقط، و"المخلاة" قطعة من النسيج أو القماش، مستطيلة الشكل، بطول نصف البدن السفلي، وبعرض يمكن من ربط أحد طرفي طولها حول صلب "الحطابة"، ويرسل طرفها الآخر إلى الأمام ليصل إلى ما دون القدمين، ثم تجمع "الحطابة" طرف "المخلاة" الأسفل بإحدى يديها لتشكل وعاءً تجعل فيه ما تلتقطه، وكلما امتلأت مخلاتها أفرغتها في كومة على الأرض حتى تنتهي من محطابها، ويستخدم "الدقاق" وهو أعواد الحشائش ومخلفات الزروع وقودا مع "الجلة" و"الحرز" يزيد في اشتعالهما لبطء احتراقهما.

وإن أردن جمع "حرز" الماشية من الضأن، فمن "مُرِّح" واحدها "مراح" وتلفظ الكلمة بهمزة خفيفة ممالة في أولها، وهو المكان الذي تبيت فيه "شلايا" الماشية واحدتها "شلية" وهي القطيع من الغنم أو الماعز، والتي عادة ما يكون مبيتها قريبا من المنازل، تعمل النسوة على "جول الحرز" عن وجه الأرض بواسطة أطراف أكفهن، و"الجول" جمع الأشياء بخفة براحتي اليدين عن وجه الأرض، فإن قلت كثافته كنسنه بالمكانس التي يستحدثنها من "جُرَز" النباتات، واحدتها "جُرزة" وتلفظ بلسان أهل البادية بكسر الأول، و"الجرزة" ملء قبضة الكف من أعواد "القَصَل" وهو سيقان أنواع من الأعشاب والزروع يمتد نموها طولا، وأكثر ما يستخدمن "الشيح" أو "القيصوم" وهي شجيرات برية ذات فروع لينة تزداد مرونتها إذا "نُدِّيت" أي عُرِضِّت للندى أو رُطِّبت بقليل من الماء، أو يتخذن المكانس من شجيرات من "البلان" لقوة عودها وتشعب عروقها، فتكنس مساحة أكثر لاتساع فروعها، ويجعلن الكنس في أكوام صغيرة إلى حين الفراغ من "المراح" لينقلن ما جمعن بقرن كل كيسين على ظهور الدواب بواسطة حبلين يرسلان على ظهر الدابة من فوق "الحِلْس" وهو دثار سميك من النسيج يقي ظهور البراذن من سطوة حبلي القران اللذين تجعل عروتاهما في جهة قريبتان من أسفل بدن الدابة في حين يرسل الطرفان الآخران إلى الجهة المقابلة، يوضع كل كيس معترضا إحدى دفتي الدابة ليجمع بينهما الحبلان بربط طرفيهما من خلال العروتين، ويستقيم كيس ثالث بين الكيسين بلا رباط.

وفي أواسط الخريف ومع أوائل الغيث تعمد الحطابات إلى ضفاف الأودية لجمع "الغوف"، وهو ما تحمله السيول من غصون الأشجار وهشيم الأعشاب أول

الشتاء فيعلق على جوانب مجاري المياه بعد انحسار سيلها، فيحزمن أغصان الأشجار بالحبال ويجمعن "دقاق" الحشائش بواسطة "الشلفان"، ويستخدم ما استدق من أعواد الحشائش لإضرام النار أول إيقادها لسرعة اضطرامه، وفي إنضاج الخبز على "الصاج"، وهو قطعة مستديرة من الحديد الصلب، محدودبة الظهر مقعرة الجوف، ينصب على ثلاث "هوادي" واحدتها "هوداة" بالوقوف على التاء المربوطة هاءً، وهي"الأثافي"، وتتخذ من حجارة لا تتشظى مع الحرارة، توزع على حواف "النقرة"، يجعل جوف "الصاج" للأسفل لاحتضان اللهب، واحدودابه للأعلى ليبسط عليه الرغيف بعد تلويح قطعة العجين المستديرة بين يدي "الخبازة" لتتسع دائرتها وترق سماكتها ليسهل نضجها، وكلما نضج رغيف بسطته على "الثفال" ويلفظ بإبدال الثاء ذالا بلهجة أهل البادية، وهو قطعة مربعة من القماش ترتد أطرافها على أوسطها لحفظ الخبز وحمايته من الجفاف.

وأكثر ما يكون احتطابهن "الرِّتم" و"الفِرس" و"العَجْرم" و"الرَّمْث" و"البِلان" و"العضو" و"الشنان"، وكلها شجيرات منبتها التلال والجبال وأجودها "الغضى" الذي ضرب المثل بجودة ناره لاتقاد جمره وقلة دخانه، ويبدأن الاحتطاب بالكشف عن سيقان تلك الشجيرات بالحفر عليها بنصل "القدوم" ثم يقطعن أصولها بالطرف الآخر، ولا يجرن في الاحتطاب، فيعمدن إلى الشجيرات الكبيرة دون الصغيرة التي يتركنها لعدم اكتمال نموها وضعف حطبها، ويجعلن ما يحتطبن في أكوام حتى ينتهين من الاحتطاب، ثم يتعاونَّ فيما بينهن على حزم ما احتطبن في حزمة إن كنَّ يحملنها على متونهن، لتحمل "الحطابة" الحزمة على متنها ممسكة بكلتا يديها بالتقاء

القطعة المعترضة مع طرفي الحبل، فإن كثر الحطب جعلنه في حزمتين متقابلتين، بحيث يستخدم حبلان يبسطان على الأرض بشكل متوازي، في طرف كل منهما عروة، توضع كمية الحطب قريبا من العروتين ليشد فيهما الطرفان الآخران، وبعد عقدهما يرسل طرفا الحبلين إلى الجهة المقابلة لاستحداث الحزمة الأخرى، أو أن يستخدم حبل واحد طويل يثنى من منتصفه بحيث يكون يتوازى طرفاه، توضع بين طرفي الحبل كومة الحطب ويشد كل طرف من الحبل إلى "الثنوة" وهي القطعة المعترضة من الحبل بين الطرفين، وبعد الانتهاء من الحزمة الأولى تستحدث الحزمة المقابلة لتحملان على ظهر الدابة فيكون الحمل متعادلا لا يستدعي ملازمته من قبل "الحطابة" خشية سقوطه، وربما كانت هناك حزمة ثالثة تستقر بين الحزمتين.

فإن أوجسوا خشية وجهوا الرعاة قريبا من "المحطاب" لتأمن "الحطابات" على أنفسهن ويجدن عونا إن احتجن إليه.

الرعي

﴿١٣﴾

الماشية قوام حياة أهل البادية، ورعايتها والعناية بها تتطلب اختيار من يحسن الوقوف عليها، فيتتبعون أصلح "الرعاة" ويستقصون أخبارهم ويتثبتون من استقامتهم، ليدفعوا بمواشيهم إلى من يطمأنون إلى صدقه وأمانته، بعد أن يستشهدوا عصبته الأدنين، الذين إما أن "يزكوه"، أي يشهدوا له بالصلاح، أو أن يصرفوا شهادتهم عنه، لأنهم سيغرمون ما يغرم مما عهد إليه، فإن تثبتوا من حسن خصاله، وحميد صفاته، وأمانته وصلاحه استرعوه ماشيتهم بعد إفقاط عدها بشهود، لينتقل "الراعي" بشخصه إن كان سيعمل على "شرط"، أي بأجر يستوفيه مع وفاء مدة عمله إما نقدا أو عينا، أو انتقل بأهل بيته إن اتفق على عمله على "مونة" أي (مؤونة بيته) وكسوته، و"فلاج" أي قسمة، وهو أجر يدفع له وقت تمام النتاج، وحسبته رأس من المواليد من بين كل أربعة وقت فطامها، و"جزَّة" صوف من كل أربع في موسم القصاص عن "الجَلَد" من القطيع، ويشمل اللفظ الذكور من الماشية والإناث دون سن النتاج وكذلك "الحيل"، ومفردها "حائل"، وتلفظ الهمزة ياءً بلهجة أهل البادية، وهي "الظَهَر" من الإناث، أي المسنة التي لم تنتج سنتها، ولا يكون شرط هذا العمل إلا على تمام الحول، ويسمى في هذه الحالة راعي "شكر"، ولفظها بلسان أهل البادية بخفض الشين وفتح الكاف، والأصل بفتح الأولين.

و"الشكر" مأخوذة من إصابة المرعىٰ الحسن، وفيه صلاح القطيع الذي تزداد عناية الراعي به للأجر الذي سيستوفيه من ذات "الشلية"، مفرد "شلايا" وتعني القطيع، التي إن حسنت رعايتها واستجيد مرعاها حسن حالها فيحسن عائد الراعي، أو مرجع الكلمة إلىٰ غزارة الحليب، وهو موسم الفطام حيث موعد وفاء الأجر، ولعل مرد الكلمة إلىٰ صغار الماشية وهي أداة الوفاء.

ومع أول انبلاج الصباح يشد "الراعي" علىٰ ظهر دابته "الجِلال"، وهو دثار يقيها القروح من أثر الحمل والركوب، يثبته بواسطة "البطان" وهو "سفيفة" أي قطعة دقيقة من النسيج تشد طرفي "الجلال" إلىٰ بعضهما من تحت بطن الدابة، ويجعل "المضفر" وهو "سفيفة" أخرىٰ أو قطعة حبل من الغزل المجدول تكون بمؤخرة "الجلال" تثبته من تحت عجب الذنب، ويجعل فوقه "الخُرج" وهو قطعة من النسيج بعرض بدن الدابة يطوىٰ طرفاها للداخل إلىٰ ما دون الثلث لتخاط حوافها من الجانبين لتكون علىٰ شكل كيسين يقال لهما "صرعتين"، يضع في إحداهما زوادته من الطعام وفي "الصرعة" الأخرىٰ "الجود"، وهو وعاء لحفظ الماء يتخذ من جلد "سخل" من صغار الماعز، وبعد أن يجعل باقي متاعه علىٰ ظهر دابته اقتلع وتدها الذي يبقىٰ متصلا مع "الرسن" واقتادها أمام القطيع صوب المرعي، و"الرسن" حبل يجعل في عذار الدابة الذي يحيط برأسها ليسهل قيادها.

يصعق "الراعي" بصوته للقطيع الذي ينجر وراء "المرياع" جمعه "مراييع"، وهو كبش عنِّين يروض من صغره، إذ يفصل عن أمه قبل حين فطامه، ويربط لفترة

طويلة ليعتاد قلَّة الحركة، ويتم إرضاعه بالإصبع ليأنس، ويقدم له العلف من كف مروِّضه ليتبعه، ثم يقرن لوقت بالدابة ليألفها فلا يفارقها، ويعلقون في رقبته "قِرقاعا" أو "جرسا"، و"القرقاع" غلاف معدني اسطواني الشكل مفتوح من أسفله في أعلاه عروة تمرر منها "سفيفة" لتطوق عنق "المرياع" ليتحرك "القرقاع" مع حركة رأس "المرياع" فتطرق جوانبه كتلة معدنية يقال لها "قلب" تتصل في وسط جوفه بواسطة سلسلة أو سلك مرن لتحدث صوتا ينجذب له القطيع، و"الجرس" كما "القرقاع" إلا أنه من النحاس يحدث صوتا أقل حدة، وعند الخشية "تبلَّم" أي تُخرس "القراقيع" و"الأجراس" فلا تخرج أصواتها، إما بربط "القلب" بخيط وشده إلى بدن "المرياع"، أو بحشو تجاويفها من حول "القلب" بالصوف، وقد يجعلون في رقاب الشاء والماعز "أجراسا" أصغر حجما مما يكون في أعناق "المراييع"، أو "بريشمانات" واحدها "بريشمان"، وهو تجويف نحاسي شبه كروي بداخله كتلة معدنية تضطرب في جوفه مع الحركة لتحدث صوتا خفيفا، مثلما يعلقون في رقاب "الطلاء" صغار الشاء، و"السخال" صغار الماعز "نِحالا" واحدتها "نَحلة"، وهي كما "الجرس" إلا أنها صغيرة الحجم.

يتجه "الراعي" بقطيعه متمهلا إلى "المرعى"، لا يتعجل المسير كي لا ينهك الماشية، ويديم مراقبة آخر القطيع الذي يجب أن يبقى متلاحقا مع أوله، فإن تباعد آخره استوقف أوله ليجمع بين الأول والآخر، حتى إذا وصل "المرعى" غرس وتد "رسن" الدابة في الأرض، أو عمد إلى تقييدها بشد "القيد" وهو قطعة حبل مجدول يوثق طرفاه على معصميها بعد التقريب بين قائمتيها الأماميتين، أو هجرها بواسطة

"الهجار" وهو حبل شبيه بالقيد كما "الهجر" يشبه "التقييد" إلا أنه يكون بالوصل ما بين إحدى القائمتين الأماميتين وما تقابلها من ذات الجهة من القائمتين الخلفيتين أو من خلاف، وكذلك يفعلون بالشارد من الدواب، وكل ذلك للحد من حركتها ليثبت "المرياع" بثباتها فلا يضطرب القطيع من حولها، ونظر "الراعي" لا يغفل عن "رِيَشِها"، واحدتها "ريشة" وهي أحد أطراف القطيع، فكلما اتسعت رقعتها صعق لها فانقلبت إليه أطرافها، أو ألقى على الطرف القصي حجرا من "المقلاع"، وتلفظ بكسر الميم وإبدال القاف جيما، وهي أداة لقذف الحجارة تتخذ من خيوط الصوف، ينسج أوسطها عريضا بقدر الكف تقريبا ويأخذ اسمه من الشكل فيقال له "كفة"، يمتد منها ذراعان مجدولان في آخر أحدهما عروة، يجعل الرامي حجرا في "الكفة" ويجمع الذراعين بيده فيلوح بهما بقوة ثم يطلقهما فيندفع الحجر وتبقى "المقلاع" باليد بواسطة العروة التي تثبت في الخنصر، وتنجذب الماشية لصوت "الشبابة" واسمها مشتق من الشَّب الذي هو النفخ، وأطلقوا عليها اسم "القصيبة" كونها كانت تتخذ من القصب، وهي عبارة عن أنبوب بطول مناسب، يستحدث في نصفها الأسفل خمسة ثقوب، ينشأ اللحن من خلال توافق النفخ في فوهتها مع تحريك الأصابع على الثقوب،وكثيرا ما يكون "الملحاق" عونا للراعي، وهو صبي في سن اليفاع يعمل على "شرط" غير أجر "الراعي".

ولا يمكث "الراعي" في "مرعى" واحد وقتا طويلا لأن الماشية تسأم الكلأ والمكان، بل يغير "مرعاها" من فينة لأخرى لتنشط في الرعي، ويتوخي "الراعي"

جودة "المرعى" في المكان العذي(١) من أرض الجلد حيث ثبات الموطئ وجودة النبت، ويتجنب الأرض اللينة التي تذهب فيها قوائم الماشية فتطول أظلافها، ويتحاشى أرض الوعر التي تخشى مسالكها، وعلى "الراعي" أن يكون عارفا بالضار من النباتات التي تفتك بالماشية ومواطنها وأوقاتها ليدفع "رعيته" عنها كيلا تهلك.

ولا تقتصر مهمته على استجادة "المرعى" أو تجنب الوخم منها، بل عليه أن يكون ملما بالعلل والأدواء فيعلم "السجر" فيسكب دواء العلة في حلق المريضة، ويلم بمواطن "الفصد"، فيريق الدم من أحد العروق البارزة التي تبرئ من المرض بأداة حادة، فإن لم يجد استخدم "الحيف" وهو قطعة يستخرجها من حجر صلب بعد كسره تكون حافته قاطعة، كما عليه أن يعرف مواضع "الكي" المبرئة من العلة فيكوي المعلولة، وأن يكون قادرا على "جبر" الكسور.

وتزداد عناية "الراعي" بالقطيع في موسم النتاج، فيتتبع الشياه التي اقترب موعد ولادتها، يعرفها باسترسال ضروعها وسخونتها، فيلبي "الطلي" وجمعه "طليان" وهو ابن الشاء أول ولادته، أي يرضعه "اللباء"، وهو حليب الأم أول نتاجها، لأن "شطور" الشاة تكون مغلقة، واعتادوا لفظها جمعا على الكثرة وهي مثنى "شطر"، وهو أحد شقي ضرع الشاة، وقلما يقوى الوليد على الرضاعة لوحده، وإن "نفرت" أم وليدها أي لم تعطف عليه، أرضعه منها عدة مرات ويمرره في كل مرة من أمام أنفها لتشمه فتعرف ريحه كي "ترومه" أي تعطف عليه، فإن أبت، داوم على

(١) العذي: الأرض طيبة الهواء مريئة المرعى تتباعد عن الأوخمة والأوبئة.

إرضاعه منها كفايته كل يوم حتىٰ يقوىٰ علىٰ الرعي، وإن ماتت أم وليد أتبعه شاة نتجت لتوها بأن يجعل عليه من "سلا" وليدها فتلعقه مما قد يؤدي إلىٰ أن "ترومه" و"السَّلا" الغشاء الذي يغطي المولود.

ويتشارك "الرعاة" في "المراعي" ويتقاربون في "المبيت" ليأمنوا علىٰ أنفسهم وقطعانهم، إذا ابتعدوا عن المضارب، وليتعاونوا فيما بينهم علىٰ درء المخاطر وقضاء الحاجات، فيبيت "الرعاة" في أطراف القطعان بعد أن تجمع قريبا من بعضها، أو ربما اختلط قطيع بآخر، وقد يتناوبون السهر إن أوجسوا خيفة، فإن سطا لص أو عدا سبع نبههم نباح الكلاب وأصوات "القراقيع" و"الأجراس" التي تحدث جلبة عند جفالها، أي نفورها من "مراحها" الذي هو معطنها، وعند النشور صباحا تنسل القطعان من بين بعضها ليتبع كل قطيع "الراعي" الذي يتبعه "مرياع" قطيعه، ليتفقدوا "شلاياهم"، فمن افتقد منها شيئا "نشد" أي طلب "العوار"، وهي الشاة الضالة لدىٰ "الرعاة" الذين خالطهم في "المرعىٰ" أو "المبيت"، فإن وجد ضالته أعادها، وإن لم يجدها ربما غرمها.

وللمراعي وأوقاتها أسماؤها، فأول الرعي يقال له "مضحىٰ" وهو قريب من المورد وموعده من أول النشور صباحا إلىٰ وقت الضحىٰ حيث موعد شرب الصباح الذي يطلقون عليه اسم "صَبحة"، يعقبها "مسج"، وتبتعد مسافته ويستمر إلىٰ حين سقيا "الظهيرة" التي يعرفونها باسم "وردة"، يتبعها "مفلا" جمعه "مفالي" وهو غير بعيد ووقته إلىٰ حين شرب المساء واسمه "غبقة"، يتلوها "معشىٰ" ويكون قريبا من

المبيت وقد يطول وقته إلى جزء من الليل، وكلها يقال لها "مراتع" واحده "مرتع" أو "مسارح" واحدها "مسراح".

فمتى حان موعد الورود الذي يتعرفون على وقته بواسطة العصا التي لا تفارق "الراعي"، فبقدر انحسار ظلها إلى أصلها كلما ارتفعت الشمس إلى كبد السماء واستطراد فيئها إذا زالت باتجاه الغروب يعرفون المواقيت فيتوجهون بقطعانهم إلى الموارد للورود ومن ثم الصدور.

الورود والصدور

﴿١٤﴾

تندفع منازل أهل البادية عن موارد المياه خشية الأدواء التي قد تصيبهم مما تنقله الهوام التي تكثر على الرطوبة أيام القيظ فتؤذيهم بعللها، وكي لا يتأسن الماء من طول المكوث عليه من معاطن مواشيهم ليبقى سائغا لهم ولأنعامهم، فضلا عن أنهم لو أرادوا النـزول على المناهل لضاق بهم المكان واكتظت الرحاب بمنازلهم على غير ما يرغبون من فسحة الأرض ورحابة الأفق، فآثروا الابتعاد عن الماء كي يخلوا الطريق بين الموارد وبين "الورادات" جمع "ورادة" وهو اسم يطلق على كل من ترد الموارد من النساء وقت ورودها لجلب الماء إلى المنازل، اللاتي قد يستقين في غير وقت ورود الماشية.

يقبل "الرعاة" على المناهل متمهلين وقد سبقهم من يعجل بملء الأحواض، والتي إما أن تكون من "الجرون" واحدها "جرن" وهو حفرة تنقر في قطعة من الصخر الصلب، وقد استحدثوه في الحجر "الأسود" الأكثر قسوة والأقل طواعية من حجر "القرطيان" ذي اللون الأبيض الذي استخدم بشكل أوسع، وغالبا ما يأخذ "الجرن" الشكل المستطيل، ويجعلون في إحدى جوانب قاعدته ثقبا يسدونه من الداخل بقطعة قماش أو خصل الشعر أو عذوق الصوف، ينـزعونها عند الحاجة لتنظيفه لتصريف المياه الآسنة من خلاله، وتكون "الجرون" التي يمكن تحريكها من أمكنتها مع ثقلها بأحجام، منها الصغير والكبير والمتوسط، وأما تلك التي تنقر في

الصخر الراسخ في الأرض فيقال للواحد منها "صِنع"، وإما أن يكون الحوض من الصفيح على شكل وعاء مستدير يقال له "قطوة" جمعها "قطوات"، أو على شكل أقرب إلى المستطيل واسمه حينئذ "جابية" مفرد "جوابي"، ومن قبل استخدموا جلود الإبل على شكل أحواض يجعلونها تأخذ هيئة الحفيرة التي يضعونها فيها فتمنع الماء من الغور في الأرض.

يعمل "السقاة" على "نشل" الماء من جوف البئر بواسطة "الدلو" وجمعه "دلاء" وهو وعاء اسطواني الشكل كان يتخذ من الجلد وصار يصنع حديثا من الجلود الصناعية، يحكم إغلاق أحد جانبيه بالخصف ويبقى جانبه الآخر الذي يقال له "الفرعة" مفتوحا، ومن جانبي "فرعته" تخرج عروة كبيرة تسمى "العِرقاةّ" ويثبت في أصل أحد طرفيها حجرا يقال له "ثقالة" وتلفظ الكلمة بهمزة ممالة أولها وبالوقوف على آخرها هاء، و"الثقالة" تجذب طرف "الدلو" إلى الماء كي لا يبقى عائما، ويتم نشله بعد امتلائه بطريقة "المتح" أي جذبه للخارج بقوة بإحدى يديه في حين تتلقى اليد الأخرى الحبل لتثبته لحين إلقاء ما تم سحبه ليعاود "الماتح" وهو الذي يباشر نشل "الدلو" عمله من جديد بواسطة "الرِّشاء"، ويلفظ بالقصر، حيث يثبت أحد طرفيه في منتصف "العرقاة"، ويكون (أي الرشا) إما من خيوط الغزل التي يتم "ضفرها" أي جدلها لتكسبه قوة أكثر، أو تفتل من "المرس" الذي يتخذ من خيوط الليف، وهي أثبت من حبال الغزل إذا تبللت بالماء ، ليفرغه "الساقي" في الحوض، إن كان قريبا من البئر، وإن ابتعد قليلا أوصله "الدالج" وهو الذاهب بين "الساقي" والحوض لإفراغ "الدلاء".

فإن نزح الماء عن "مصب" البئر، أي وسطه حيث مسقط السيل إذا اندفق فيه، وصار الماء إلى جوانب البئر، يصير من العسير ملء "الدلاء" إلا بإرسالها إلى الأطراف بتمييح "الدلو" أي قذفه إلى جوانب البئر من قبل "الساقي" بواسطة "الرشا"، مما يأخذ وقتا أطول في السقيا، وللتعجيل في الاستقاء ينزلون "مياحا" أو"مياحة" إلى قاع البئر، يربطون وسطه بالطرف الآخر من "رشا" الدلو، ليمسك به بكلتا يديه من فوق العقدة ويتدرج بالنـزول و"السقاة" يرسلون به على مهل، حتى إذا استقر في قرار البئر سحب "السقاة" الحبل وبدأوا بإرسال "الدلاء" ليملأها "المياح" ويجعلها في وسط البئر كي ينشلها "السقاة" الذين يرسلون الحبل بعد الانتهاء من الاستقاء إلى "المياح" ليربطه حول وسطه ويخرجوه كما أنزلوه.

وما أن ينتهي "السقاة" من ملء الأحواض حتى يكون "الرعاة" قد حبسوا قطعانهم على مقربة من المورد، فيبدأون بإرسالها "خِزَلا" على قدر استيعاب الحوض، يقال لكل "خِزّلة" وهي القطعة القليلة من الماشية "رسل"، حتى إذا ارتوى "الرسل" نحوه جانبا وأعاد "السقاة" ملء الأحواض من جديد ليعاود "الرعاة" إرسال "الأرسال" حتى تكتمل سقاية كامل القطيع، وفي كل مرة تملأ فيها الأحواض يضاف إلى الماء بعود مغموس شيئا من "القطران"، وهو سائل أسود ثخين ذو رائحة زكية يستخلص من شجر الأبهل والأرز، تعتاده الماشية فتستزيد شربا، وبعد أن يرتوي القطيع تسقى الدواب.

والإبل ترد سادس خمس، فبعد إظماء خمسة أيام يتم إيرادها في اليوم السادس، ويسمون أيامها لمواعيدها، فاليوم الأول للورود يسمونه (جِمّر) واليوم الثاني (صدير) والثالث (أول ربع) واليوم الرابع (ثاني ربع) والذي بعده يسمونه (خمس) أو (خامس) ويطلقون على اليوم السادس اسم (وريد) وهو موعد الورود.

وإلى أن تُراح الماشية قليلا بعد الشرب تملأ "القرب" واحدتها "قربة" و"الروايا" مفردها "راوية" لتقفل "الورادات" جمع "ورادة" وهي المرأة التي تستقي الماء وقت ورودها، و"القربة"، وتلفظ بلهجة أهل البادية بإبدال القاف جيما، وهي وعاء من الجلد يتخذ من جلود كبار الماعز بعد سلخ جلد الذبيحة على هيئته، وبعد تهيئته يخصف من أسفله وتُصرُّ مواضع القوائم لتصل بين موضع كل قائمتين قطعة من حبل الغزل بشكل عرضي يصل بينهما حبل مع طول بدن "القربة" يرسل منه وكاء إلى مقدمتها باتجاه موضع الرقبة التي يطلق عليه اسم "فرعة" لربطه بعد الملء والاستخدام، و"الراوية" وعاء كان قديما يتخذ من جلود الإبل وصار يعد فيما بعد من الجلود الصناعية، وتتكون كل راوية من قطعتين مستطيلتين متابطقتين يخصفان إلى بعضهما من جهاتهما الأربعة ويترك في منتصف أحد طرفي العرض فتحة بقدر مناسب تخرج منها فوهة تثبت بالخصف في أصل الفتحة لسكب الماء فيها ومنها تسمى "فرعة"، ويجعل إلى الزاويتين العلويتين عن يمين وشمال "الفرعة" عروتان تثبتان في بدن "الرواية" لتقرن كل "راويتين" إلى بعضهما على ظهر الدابة بقطعة حبل تصل ما بين كل عروتين متقابلتين في "الراويتين" اللتين يقال لهما "حمل"، وتأتي "الروايا"

بأحجام، غير أنه يجب أن يتساوىٰ كل "حمل" بالحجم، لتتعادل كل "راويتين" مع بعضهما فلا تميل إحداهما بالأخرىٰ.

وتملأ "القرب" أولا التي تعبأ وهي مسندة، فكلما امتلأت "قربة" أحكم وكاءُها، ثم تملأ "الروايا" وهي محملة علىٰ ظهور الدواب حيث تسكب "الدلاء" بالتناوب بين كل "راويتين" لتبقيا متعادلتين، ويصفَّىٰ الماء بواسطة قطعة قماش رقيقة تحيط بفوهة "القربة" أو"الراوية" تسكب من خلالها "الدلاء" لتمنع نزول الشوائب في الأوعية، وتحول دون "العلق"، واحدتها "علقة" وهي دويبة صغيره حمراء اللون تتكون في الماء تمتص الدم إذا علقت بالجسد، وبعد امتلاء "الروايا" تطوىٰ "فرعاتها" إلىٰ الداخل لئلا يتدفق الماء منها أثناء المسير، وتوضع "قربة" بين كل "راويتين" تلازمها إحدىٰ "الورادات" كي تستقر، و"الورادة" ربما حملت "القربة" علىٰ متنها بجلوسها حذاءها لتعترض "القربة" متن "الورادة" فترسل المرأة كلتا يديها من فوق الأكتاف إلىٰ الوراء لتتمكن من الحبل المعترض بين مواضع القوائم في "القربة" فتنهض بها، وعند وصولها تنـزلها بأن تهبط إلىٰ الأرض وتلقي بظهرها إلىٰ الخلف علىٰ مهل حتىٰ توصل "القربة" مستقرها، فيما يتم إنزال "القرب" المحملة علىٰ ظهور الدواب حملا بين "ورادتين"، أما "الروايا" فيتم إنزالها بإرخاء الحبال بالتدريج حتىٰ تصل الأرض ثم يتم تخليص الحبال بالكامل ودفع الدواب، وتحفظ المياه في أدواتها وهي محكمة الإغلاق في مكان مستظل يجعلونه قريبا من منازلهم.

وتجفف "الروايا" من حين لآخر قبل الورود، بإزالة آثار المياه منها بعد إفراغها بالكامل، وذلك بجعل فوهاتها إلى الأسفل ليقطر ما يعلق فيها، وتعريضها لسطوة أشعة الشمس ومهب الريح كي لا "تصن"، و"الصَّنُّ" و"الصَّنَّةُ" انبعاث رائحة مستكرهة تشعر بأسن الماء، أي فساده جراء طول مكوثه فيها وزيادته عليها دون تنظيفها، وكذلك "القرب" التي يزيدون بتنظيفها بإعادة دباغتها من فينة لأخرى ابتغاء نقاء الوعاء واستدامة له.

وتتعدد مواردهم، فإما أن يردوا "الينابيع" واحدها "نبع" أو "ينبوع"، يستقون لأنفسهم من حيث ينز الماء، ويسقون ماشيتهم مما يستنقع في مهابط مجاريها على شكل أحواض، أو وردوا "الغدران"، مفردها "غدير" وهي مناقع المياه التي تخلفها السيول عقب الأمطار، فإن أسنت لركودها وقلة مائها تحولوا إلى "البِرَك" جمع "بِرّكة" وهي حفيرة واسعة في أرض مطمئنة تتجمع فيها السيول، فإن قلَّ ماءها اتجهوا إلى "الجِفار" واحدها "جَفْر" أو "الركايا" واحدتها "ركية" أو "القلبان" مفردها "قليب" وتلفظ بلهجة أهل البادية بقلب القاف المفتوحة جيما مخفوضة، وكلها كما "الآبار"، حفائر على أعماق متفاوتة تتجمع فيها مياه الأمطار، يستخرج منها الماء بواسطة "الدلاء"، فإن نزحت وردوا "المطوخ" جمع "مطخ" وهو حوض واسع يحتفر في أرض مطمئنة لتهبط إليها سيول الماء، ويجعلونه بأربعة أضلاع تحاط جدرانه من الداخل بالحجارة من جهاته الأربع لحفظ جوانب الحوض من الردم ولحفظ الماء من الغور في التربة.

وبعد اكتمال الري يتم "مَرُّ" أي تمرير كامل قطيع الماشية من جانب الماء على مهل لتنفرد العطشى فتستزيد، ومن ثم يصدرون عن المورد إلى "المقيل"، وهو المكان الذي تراح فيه الماشية وقت "القيلة" وهي الراحة عند "القائلة" أي شدة الحر وقت الظهيرة التي يقال لها "القيلولة"، وفي أيام القيظ ترد الماشية ثلاث مرات، "صبحة" و"وردة" و"غبقة"، تقتصر مع انحسار الحر على "وردة" و"غبقة"، وعلى "وردة" إذا رطب الجو.

ويقطعون ماشيتهم إلى "قطيعين" الأول يطلقون عليه اسم "الجَلَد" وهي الماشية التي دون سن النتاج، ويجعلون فيه المسان التي لم تنتج عامها، والقطيع الآخر يقولون له "الرَّغَث" وهي التي نتجت فدرت ضروعها فيحتلبونها بعد فطام أولادها.

الاحتلاب

﴿١٥﴾

نتاج الماشية أحد مواسم أهل البادية، وأفضل مواسمهم ذلك الذي تغلب فيها نسبة مواليد الإناث التي يستبقونها للإكثار على نسبة مواليد الذكور التي يتخيرون القليل النادر منها للفحولة وفق أوصاف صارمة أهمها "الوَسْر"، وهو شكل الهيئة التي عليها الفحل لانعكاسها في المواليد، وأجود المواسم تلك التي يقلُّ فيه "الرِّمى" بالألف المقصورة اسم جمع لواحد حالة "الرمي"، أي إسقاط المواليد قبل تمامها، فينفق المولود ويجف ضرع أمه ويقال لها "رامي"، فتصير في قطيع "الجَلَد" لعدم الاستفادة من حليبها لعدم إدرارها، والتي تلد لتمامٍ يقال لها أول نتاجها "مصغر" وجمعها "مصاغير"، ويلفظ حرف الصاد أقرب إلى حرف الزاي.

وعند بدء موسم النتاج يؤخرون "المتالي" التي اقترب موعد نتاجها عن المراعي، واحدتها "متلي" وهي الشاة التي ثبت لقاحها، يعرفون ذلك من اكتمال تحدر "درتها"، أي نزول "الدَّرِّ" (الحليب) إلى "ضروعها" التي تبدو سخونتها عند ملمسها، واحمرار "شطورها"، و"الشطر" أحد شقي "الضرع" حيث مخرج الحليب، كما يعرفونها من "تطَرُّحِها" أي إكثارها من الربوض والنهوض، فلا يرسلونها مع القطيع كي لا تجهد حتى تنتج، فمتى نتجت الشاة جعلوا وليدها أمامها لتلعق "السلا"، وهو الغشاء الذي يغلف المولود لحظة يولد، كي "تروم" الأم وليدها، ثم يعمدون إلى ضرعها فيهصرون "شطريه" وهما إحليلا الضرع، ليخرج "شخب"،

وهو خيط من الحليب من كل "شطر" ليقوى "الطلي" على الرضاعة، وجمعه "طليان" على العموم، وهي أبناء الشاء من الضأن، وإن أرادوا التذكير قالوا "خروف" للذكر و"عبور" للأنثى، ويقال لأمثالها من أبناء الماعز "سخال" على العموم، مفردها "سخل" على التذكير و"سخلة" على التأنيث، ويستبقون الصغار تحت أمهاتها لبضعة أيام لترضع "اللباء"، وهو حليب الأم أول ولادتها، ويكون أكثر كثافة، تميل كثافته للاعتدال تدريجيا ويعتدل لونه الحائل إلى الصفرة للبياض، ويحتلبون ما زاد من الحليب عن حاجة الرضيع ويطلقون عليه اسم "فضلة"، ولا يصنع "اللباء" إلا "شمنذورة" ومنهم من يسميها "حثيمة" وطريقته أن يوضع "اللباء" في إناء على نار هادئة مع دوام تحريكه حتى تزداد ثخانته، ومتى أنزل وبرد ازداد كثافة وصار شديدا ويستخدم أداما، فيما يبقون للرضيع "فضلة" إذا احتلبوا أمه قبل رضاعته.

وبعد أن تقوى "الطلاء" و"السخال" يمنعونها عن الرضاعة نصف يوم، إما من الصباح إلى المساء، أو من المساء حتى الصباح، فيحولون بين رضاعة "السخل" وضرع أمه بواسطة "الشملة" وهي وعاء من القماش يكتنف ضرع "العنـز" يشد برباط إلى ظهرها، أو بواسطة "اللجام" وهو عود يتخذ من بعض الغصون يعترض فم "السخل"، بطرفه خيطان يتعاقبان تحت جبهته ثم يعقدان خلف قرنيه، يمنعه من الرضاعة دون أن يمنعه من الرعي، وأما "الطلاء" فيجعلونها في "الرِّبق"، ويلفظ بلهجة أهل البادية بإبدال القاف جيما مشددة، وهو حبل يتخذ من غزل الصوف يثبتون طرفيه بوتدين بعد أن يستحدثوا ما بينهما عدة "عرى"، بين كل "عروة" وأخرى مسافة تحول دون تعاقب "الطليان" كي لا تؤذي بعضها، يفرجون "العروة"

بين السبابة والإبهام ثم يثنونها للأسفل لاستحداث "عروة" جديدة على شكل أنشوطة يجعلونها في إحدى قوائم "الطلي" الأمامية، وقد يستخدمون أكثر من "ربق" يثبتونها بموازاة بعضها، أو أن يحبسوها في "صيرة"، وهي فسحة من الأرض الصلبة يحيطونها بسلسلة من الحجارة من جميع جهاتها وعلى ارتفاع لئلا يتجاوزها "البهم"، وهو اسم يطلق على عموم صغار الماشية، ويجعلون له منفذا يغلقونه بستائر النسيج، أو أن تأخذ "الصيرة" ذات الشكل من أكوام الحطب، أو ربما استحدثوها من قطع النسيج التي تلتف حول أعمدة تغرس في الأرض، وبعد الاحتلاب يطلقونها لتكون تحت أمهاتها بقية اليوم، إلى أن يحين وقت الفطام، فيعزلون "المفاطيم"، ويقال لها "الفطمان" واحدها "فطيم"، وهي "الطليان" التي بلغت سن الفطام واعتادت الرعي لتكون في قطيع لوحدها حتى تعزو أمهاتها وتعزوها أمهاتها، ليباشروا احتلاب "الرَّغَث" بمعزل عن أبنائها، و"اللجب" واحدتها "لجبة" وتلفظ بهمزة مخفوضة قبل اللام الساكنة وبكسر الجيم وفتح الباء والوقوف على التاء المربوطة هاءً وهي الشاة التي مات وليدها أو ذبح، فإن كان ذبحه قبل رعيه عمدوا أثناء سلخه إلى فصل "المساة" عن باقي أحشائه، وهي المعدة حيث مستقر حليب الرضاعة وربطوا طرفيها من آخر المريء إلى أول الأمعاء ليشقوها بعد جفافها ويستخرجوا ما بجوفها الذي يتجمع على شكل "حصيات" يسمونه "دورا"، يذيبون قليلا من "الدور" في الحليب لتخثير الحليب ليصبح "جبنة".

في موسم الإدرار، يحتلب أصحاب الماشية مواشيهم "حلبة" عند الصباح وقبل نشور القطعان إلى المراعي، وأخرى وقت الظهيرة بعد "الوردة" وقبل "القيلة"،

وإن قلَّ إدرارها اقتصروا على "حلبة" واحدة إما صباحا أو مساءً، ففي موعد الاحتلاب يعمدون إلى "شَبْق" الماشية، إي إعدادها للاحتلاب بمعاقبة كل رأسي شاتين متقابلتين وربطهما بواسطة "الشِّباق"، وهو حبل مجدول من غزل الصوف، في أحد طرفيه "عروة" تستخرج منها "عروة" جديدة عند ربط أول شاتين بعد أن يطوق الحبل عنقيهما، يتم ثني الحبل من أقرب مسافة من "العروة" لإحداث طية يتم إخراجها من "العروة" الأصل لتشكل "عروة" جديدة تستخدم لذات الغرض عند تكرار عملية "الشبق" إلى أن يتم الانتهاء من كامل القطيع لتوضع "العروة" الأخيرة في مقدمة وجه آخر شاة "شبقت" كي لا ينفلت "الشباق" أو يتراخى جراء حركة الماشية، وقد يستخدم أكثر من "شباق" فينشأ عن عملية "الشبق" صفان متقابلان من الشاء متعاقبان في الرؤوس، وتعتاد الماشية "الشباق" لكثرة ما يتم "شبقها" فتتوارد لوحدها وغالبا ما تصطف كما ينبغي.

تبدأ "الحلابات" وهن النسوة اللائي يقمن بالاحتلاب عملهن مع بدء عملية "الشباق"، بحيث تجلس "الحلابة" خلف أول شاة تم "شبقها" وتتمكن من "شطريها" براحتي يديها لتهصرهما هصرا لينا ومتتابعا لاستخراج الحليب منهما مصوبة "شخبه" إلى الإناء، وعادة ما يتم استخدام "العلبة" وهي وعاء من ألواح الخشب الصلب توصل ببعضها بإحكام، ويحيط بها طوقان معدنيان من طرفها الأعلى والأسفل، واستخدمت الأواني المعدنية، وكلما امتلأ الإناء أفرغ في وعاء كبير إلى أن تنتهي عملية الاحتلاب ليُبَتَّ "الشباق" بأن تخلص "عروته" الأخيرة من رأس الشاة

التي جعل فيه ويسحب من طرفه للخارج لتتابع "العرىٰ" بالانفلات بسهولة فتتفرق الماشية من "الشباق" لتتجمع في "المقيل".

بعد أن تنهي "الحلابات" احتلاب الماشية، يقمن بتصفية الحليب بقطعة قماش رقيقة يجعلنها حول فوهة إحدىٰ الآنية يسكب الحليب من خلالها لتحول دون الشوائب التي قد تعلق به من أصواف وشعور "الحلائب" أي التي تحتلب، ثم يسخن علىٰ النار دون حد الغليان لتضاف إليه "الروبة"، وهي قليل من اللبن تذاب بالتحريك و"المرس" أي إذابة كتل "الروبة" لتتجانس مع الحليب الذي يغطىٰ بالدثار بعد إنزاله عن النار حتىٰ يتخثر، وبعد كشفه ليبرد يسكب في "الشكوة"، وهي وعاء يتخذ من جلود الضأن أو الماعز يسلخ علىٰ هيئته وبعد "تَمَّرِهِ"، أي جمعه إلىٰ بعضه وحفظه بحيث لا يمسه الهواء حتىٰ "يعطن" أي ينتن عندها يسهل نزع الصوف أو الشعر عنه، ينقع في "الدباغ"، وهو صباغ يتخذ من لحاء نوع من الأشجار يكسب الجلود ليونة عند نقعها بمائه بعد غليه، ومن بعد تقد قاعدتها ويؤخذ من "سيورها" علىٰ شكل خيوط لتخصف بها بواسطة "المخرز"، وهو عبارة عن قضيب معدني مدبب أحد الطرفين ويجعل حول طرفه الآخر قطعة من الخشب أو لفافة من الجلد لوقاية اليد، يستخدم لخصف الجلود باستحداث ثقب بطرفه المدبب يدخل من خلاله "السير"، ثم "تصر" مواضع القوائم بعد خصفها، و"الصَّرُّ" أن يجعل في موضع الرباط كتلة تمنع انفلات "المرير" وهو خيط مفتول من غزل الصوف يصل بين موضع كل قائمتين يجمع بينها "مرير" آخر تنطلق منه وكاء إلىٰ فوهة "الشكوة" لإحكام إغلاقها، وتعالج بالملح الذي يحفظ الجلد ويكسبه قوة، ولا تستخدم قبل تخليص

جوفها من آثار "الدباغ"، وتتعدد أسماء "الشكاء" بتعدد أحجامها واستخداماتها، أوسطها حجما "الشكوة" وهناك "الزُّكرة" وهي أصغر "الشكاء" وأكبر منها "الظبية" ثم "السعن" ثم "الشكوة" وكلها تستخدم لحفظ اللبن وتتخذ من جلود صغار وكبار الضأن والماعز، و"الجف" أكبر من "الشكوة" ويتخذ من جلد كبش أو تيس كبير الحجم، وأكبر منه "القرقعة" ويتخذونها من جلود أبناء البقر ويستخدمان للخضيض.

وكلما تجمعت كمية من اللبن استخلصت منه "الزبدة" بطريقة "المخض" الذي يباشرنه "الخضاضات" اللائي يمخضن اللبن مع أول الصباح حيث برودة الطقس التي تساعد على تجميع "الزبدة"، وقد كن "رثين" الحليب على اللبن مساء الليلة التي يباشرن مع صباحها عملهن، و"الرَّثية" إضافة الحليب إلى اللبن لكسر حموضته، وعند الصباح يضفن الماء البارد إلى "الشكاء" ثم ينفخنها بأفواههن بإرسال أنفاسهن إلى أجوافها، وبعد كل نفس يمسكن بإحكام فوهة "الشكوة" كي لا يتسرب الهواء منها، ثم يحكمن وكاءها ويبدأن "المخض" بدفع "الشكاء" إلى الأمام وجذبها إلى الخلف بحركات قوية ومتتابعة لتحريك محتواها لفصل "الزبدة" التي تطيش على وجه "المخيض" عند سكبه في الأواني بعد تمام عملية "المخض"، وبعد استخلاص "الزبدة" يجعلن "المخيض" في أكياس من القماش يسمونها "خرائط" واحدتها "خريطة" ليرشح الماء منه حتى يزداد تماسكه ليصنع "جميدا" الذي يستخدم في أوقات جفاف الضرع فيعاد تحويله إلى لبن من جديد بواسطة "المرس" أي إذابته بالماء بمواصلة الدلك، ولتصنيع "الجميد" يفرغ محتوى "الخرائط" في آنية، ويتم "تمليكه" بطريقة العجن حتى يتجانس مع إضافة الملح بنسبة عالية ليحفظه لمدة أطول، ثم يجعل

قطعا تجفف في الظل، ولا يخزن ما دامت فيه رطوبة الماء كي لا ينخره "العث"، وهو نوع من الحشرات واحدته "عثة"، يتخلق على الرطوبة و"الزهومة" (رائحة الدهن)، لذا يحرصون على تنقية "المخيض" من بقايا "الزبدة" التي يجمعونها في "المزابد"، واحدها "مزبد"، وهو وعاء من جلود الماعز يحفظون فيه نتاج "الخضيض" من "الزبدة" إلى أن يتم تحويلها إلى "سمن" بإذابتها على نار وئيدة حتى "تنبغ" أي ينبعث منها ما يشبه الفوران في باقي السوائل، أضافوا إليها "السميدة" وهي جريش القمح لتمتص بقايا اللبن والماء العالقين فيها، ثم يضاف "الكركم" وهو صباغ من التوابل يكسب "السمن" اللون الأصفر الصافي، كما يضيفون إليه "الفيجل"، وهو لغة في "الفيجن" أو "النفل" أو "الحندقوق" أو جميعها، وكلها نباتات ذوات أزهار طيبة الرائحة تعطي نكهة مستساغة، وما أن يهدأ "السمن" بعد إتمام صنعه وتخف حدة حرارته يصفى عن "القشدة"، وهي "السميدة" بعد نضجها، ليوضع باردا في "الظرف" وجمعه "ظروف" وهي أوعية من الجلود تستخدم لفظ "السمن".

وعند "غراز" الماشية، وتلفظ بسكون الغين قبلها همزة خفيفة ممالة، وتعني جفاف الضرع، تطوى "الشكاء" بإعادة "دباغتها" لتخليصها من أثر الاستخدام، و"تمليحها"، أي دلكها بالملح جيدا للمحافظة على الجلد من التلف، ويبثون الملح بكثافة في جوفها وبين طياتها لحمايتها من العفن و"العث"، حتى إذا احتاجوها في الموسم القابل أعادوا إليها مرونتها بنقعها من جديد في "الدباغ".

وبعد انتهاء موسم الاحتلاب يعيدون قطعانهم إلى حالها بخلطها مع بعضها وهم الذين يميزونها بأسمائها، وينشدون ضالتهم بوسمها.

الوسم والاسم

﴿١٦﴾

يتعرف أصحاب الماشية ورعاتها على ماشيتهم من الضأن والماعز بأسمائها تبعا لأوصافها على كثرتها وتشابه أشكالها التي مع اتساعها لا تؤدي إلى صعوبة التفريق بين شاة وأختها لشِيَّةٍ تميز إحداهما عن الأخرى، فيطلقون على كل واحدة اسمها الذي إن أشكل عليهم جعلوا معه قرينة تقرب الوصف وتفصل بين المتشابه لتتأكد المعرفة، فهم يعرفون مواشيهم بوجوهها وأبدانها وما اقترن بها من الأوصاف التي يضيفونها إلى ما استقر لديهم من أسمائها فيكون بذلك لكل شاةٍ اسمها.

فالضأن يطلقون عليه اسم "البياض" على العموم، لأن اللون الأبيض يغلب على أصوافها وإن عمت ألوان أخرى سائر جلود بعضها فهو قليل لا يخرج عن المألوف العام، ويطلقون على الماعز اسم "السمار" جمع "أسمر" على غير قياس، للسمة العامة التي تطغى على ألوان شعورها، ولا يصرفهم اختلاف ألوان بعضها عن التسمية التي صارت تطلق على الجنس، هذا في عامة البدن، وفي الوجوه اختلاف، وفي تفاصيل الوجوه تباين، ومنها يبدأ التفريق بين شاة وأخرى.

فمن المألوف اختلاف ألوان وجوه الضأن، فيما يغلب على وجوه الماعز اللون الأسود، فما كان من الضأن يقترب لون وجهها من الصفرة يسمونها "شعلا"، فإذا اشتد لونها فاقترب من الحمرة قالوا "شقرا"، فإن عمتها السمرة كان اسمها "دعما"، فإن اشربَّت (شقرتها) بسمرة أو "دعمتها" بحمرة أسموها "سحما"، وهي في الماعز

"حويا"، وكل شاة علت جبهتها بقعة بيضاء أسموها "غرا"، وفي الماعز "صبحا"، والشاة التي يمتد لون وجهها إلى عنقها ولبتها أسموها "دَرّعا"، والتي تخلل لون وجهها بقع صغيرة بيضاء متناثرة قالوا عنها "رخما"، وفي الماعز "برشا"، فإن مال لون وجهها إلى البياض الكامل كانت "غبشا"، فإن تخلل بياض وجهها بقع سوداء متباعدة أطلقوا عليها اسم "قرحا"، والتي صغر حجم أذنيها من الضأن "قرطا"، ومن الماعز "قطما"، و"القطما" في الماعز التي اجتمعت أذناها إلى أصلهما، فإن طالتا قليلا وتدانى طرفا عرضيهما إلى الداخل قيل عنها "فتلا"، فإن زادتا في الطول أكثر واتضحت غضونهما صارت "جدلا"، والتي أذناها مبسوطتان على حالهما وتناثرت بقع بيضاء في ظاهرهما أسموها "ذريا"، فإن تخللهما لون "الصُّهبة" (الحمرة التي تميل إلى الصفرة) أطلقوا عليها اسم "عطرا"، والشاة السوداء التي تخللت إحدى دفتيها بقعة بيضاء يقال لها "بقعا"، وفي الماعز "نبطا"، وسائر إناث الضأن "قُرع" جمع "قرعا"، أي "جُلّح" مفردها "جلحاء"، فيطلقون على من نبت لها قرنان اسم "قرنا"، وتلفظ القاف جيما، وعامة الكباش، واحدها كبش وهي ذكور الضأن، ذات قرون، فيطلقون على من لم تنبت له قرون اسم "أقرع" تفريقا عن الأعم، فيما الأغلب في الماعز ذكورا وإناثا ثبات القرون، فيطلقون على ما اختلفت عن العام من الإناث اسم "قرعا"، وقياس تذكير جميع تلك الأسماء على وزن "أفعل".

وللاتساع في الأسماء يميزون بين المتشابهات في الأوصاف بقرينة السن، فالأنثى من الضأن "عبور" لستة أشهر ومن الماعز "سخلة" وتلفظ بهمزة ممالة قبل السين الساكنة، يقابلها في الذكور "خروف" وفي الماعز "جدي"، ثم "قرقورة" لتمام

السنة وفي الماعز "شعرية" ولفظها كما في "سخلة"، والذكر من الضأن في هذا السن "دغلي"، تأتي بعدها "الثنية" في الضأن والماعز، وهي التي استوفت السنة الثانية، والذكر "ثني"، وتبقى "ثنية" لسنتين في الأولى "ثنية" بثلاث "حبات"، وهي ثلاثة أسنان صغيرة البروز تنبت خلف الأسنان الثمانية الدائمة في مقدم الفك السفلي في كل حنك، في حين الفك العلوي يخلو من الأسنان في مقدمه، وفي السنة الثانية "ثنية" بحبتين، فإن سقطتا وبقيت حبة واحدة من كل جهة انتقلت في السن إلى "رباعية"، مذكرها "رباع"، فإن ألقت إحداها صارت "خماسية"، و"خَماس" على التذكير، فإن ذهبت الأخرى أصبحت "جامعة"، والمذكر "جامع"، ثم تبدأ بالهرم وأوله "الحسم"، وهو تآكل أطراف أعلى الأسنان فتقصر عن حدها المعهود، فالأنثى والذكر كلاهما "حاسم"، ومن ثم تبدأ بالسقوط حتى تفقدها جميعا، وتبقى الأضراس في آخر الفكين فيقال للأنثى والذكر منهما "قالع"، ولهم قرينة أخرى تزيد في التمييز ما بين الأسماء والاتساع في الأوصاف وهي حال الشاة، فالتي لقحت لسنتها وبان لقاحها يقال لها "متلي"، والتي لم يثبت لقاحها "كاسر"، والتي لم تلقح يسمونها "حايل"، والتي ولدت قبل تمام عشارها وعاش مولودها "سباق"، ويلفظ الاسم بهمزة خفيفة مخفوضة قبل السين الساكنة، والتي ألقت وليدها نافقا "رامي"، والتي نتجت لوقتها يطلقون عليها اسم "مصغر"، فإن رأمت وليدها قالوا عنها "روم" وإن لم تعطف عليه أسموها "نَفّر".

وفي الإبل، يقال للناقة التي نتجت حديثا (خَلْفَةّ)، ولمولودها أذكرا كان أم أنثى (حوار) حتى تمام السنة الأولى، وفي الثانية يطلقون عليه اسم (مفرود) لإفراده

عن أمه واستغنائه عنها، فإن ولدت أمه بعده سمي (حق)، ويصح القول (حِجّ) والمؤنث (حِجَّة)، وفي السنة الرابعة يطلقون على المذكر (جَذَع) والأنثى (جَذَعَة)، ويطلق على المذكر اسم (القعود) حتى يصير بعمر (الثني)، وعلى الأنثى اسم (البكرة) حتى تنتج نتاجها الأول، وفي النتاج الثاني يسمونها (ثنو)، وفي الثالث يقال لها (أم ثالث) ثم (رباعية) وهكذا، وفي السنة الخامسة من أعمار الإبل يقال للذكر (ثَنِي) وللأنثى (ثَنِيَّة)، ويتم الدخول في سن (الرَّبَاع) لسنتين متتاليتين، في السنة الأولى يقال (أول ناب) ويكون في السادسة من العمر، وفي السنة الثانية يسمى (ثاني ناب) ويكون بعمر السبع سنين، ثم ينتقل في السنة الثامنة من العمر إلى سن (الخَمَاس) وهو آخر سن الفتوة، ومن بعد يدخل في بداية سن الهرم وأوله للناقة (فاطر)، وللجمل (راس) أو (هِرِّش). وقد تعمر الإبل لخمس وعشرين سنة.

وإن كانت الناقة (خَوَّارة)، أي غير نجيبة، ومتخذة للدر فقط، استخرجوا منها النجائب من الإبل بأن يطلقوا عليها الجمل الأصيل فتضع بكرة، فيبدأ العد منها بواحد، ثم يطلقون على البكرة الأولى في سن النتاج الجمل، فتلد بكرة في طبقة جديدة، فيصير العد (اثنين)، وهكذا في كل بكرة من سلالتها حتى البكرة الخامسة فيتوقف العد لتغدو أصيلة، فيقال (باطل عدها)، وتدخل في النجائب بشهادة أهل المعرفة بذكر النسب من جهة الأم والأب. وعند النتاج لا يطلقون (الفحل) على أمه أو أخته، ومن (الفحول) من يأبى الوقوع على من ولدته فطرة.

وللركاب أسماؤُها التي يستحبونها للصفات الأصيلة التي تتميز بها من حيث الجسارة والقوة، فصارت ذات شهرة حتى غدت نخوة لأهلها، فقيل (الهدلا)

و(العليا) فـ(العرفا)، و(الجدعا) و(البلها)، وكلها من نجائب الإبل[1]،ويطلق على مفردها اسم الذلول[2].

وعلى قدر ما في الإبل من الحقد، فيها من الوفاء، فيها من الألفة والوفاء، فالناقة التي يموت حوارها لا تفارقه لثلاثة أيام، تبقى خلالها واقفة عليه والحزن باد عليها، وبعد الثلاثة تغادره بتثاقل، وإذا كانت في القطيع ناقة مريضة، فإن باقي الإبل لا تزحمها كي لا تؤذيها، وتفسح لها في المسير وفي الورود على الماء.

ويسمون الإبل بألوانها، فـ(السحما) التي يميل لون حمرتها إلى السمرة قليلا، و(الشقحا) ذات الحمرة الداكنة، و(الحمرا) التي كان لونها احمرار وبرها صافيا، و(الوضحا) البيضاء الناصعة، و(الزرقا) التي يخالط لون سواد وبرها بياض، وأما (الملحا) فذات الوبر الأسود، وقد يطلقون عليها اسم (الصفرا) ميلا عن لفظ (الأسود) الذي يتشاءمون من ذكره[3].

وينشدون ضالتهم ويسألون عنها بإثبات وذكر "الوسم"، وهو علامة يثبتها صاحب القطيع على "القِنِيَّة" من ماشيته التي يستبقيها من النتاج لإكثار ثروته، وتلفظ

---

(1) الأصل بهذه الأسماء وكذلك الأسماء المتعلقة بالأوصاف الهمز، فتم قصرها للشيوع وتليينا للفظ، وذكرها لا يعني الترتيب.

(2) الذَّلول: اسم يعني اللين، ويطلق على نجائب الإبل، مثلما يوصف به الإنسان والخيل، ويتساوى بالاسم المذكر والمؤنث، ومثناه (ذلولان)، والجمع (ذُلُل) و(أذِّلة)، وللتفريق في المعنى ما بين (أذلة) المأخوذ من (اللين) و(أذلة) المأخوذ من (الذل) ويجمع على (أذلاء) أيضا يعاد باللفظ إلى المفرد أو المثنى، فما مفرده (ذليل) ومثناه (ذليلان) غيره في المعنى عما مفرده (ذلول) ومثناه (ذلولان). وقد يقصد بلفظ (أذلة) الهوان إذا وصف به الإنسان، ويستدل على ذلك من السياق.

(3) بتصرف عن رواية عبد الله سالم المراعية الحويطات.

الكلمة بإبدال القاف المخفوضة جيما مكسورة، فيما يترك تلك التي ينوي بيعها "غُفْلا"، بلا "وسم" يميزها كما باقي "الشَّلِيَّة" التي تحمل جميعها "وسما" واحدا يوافق "وسم" قوم صاحبها ويخالف "وسوم" أقوام آخرين، إذ لكل قوم "وسم" تتعاقبه الأجيال، فيثبت لهم دون غيرهم لا يتعدونه إلى سواه فيصبح "الوسم" فضلا عن كونه علامة يميزون بها ماشيتهم وسيلة للتعرف على القبائل التي غدت أسماءُها تقترن بالوسوم.

يستحدث "الوسم" إما في آذان الماشية بواسطة أداة حادة لقطع أو شرخ جزء من الأذن لاستحداث علامة، ولكل حالة اسمها التي تم التعارف عليها على أنها "وسم"، ومنها "القَطْشَة"، وهي قطع جزءٍ يسيرٍ من أسفل طرف الأذن، و"الصَّلم"، ويكون بإزالة ما يقرب من نصف حجم الأذن، و"الشَّرْخَة" تكون بإحداث شق مع طول الأذن، ومثلها "الرِّيشَة" إلا أنها تكون مع عرض الأذن، و"القَبْلَةّ" إزالة جزء يسير من أحد جانبي الأذن على شكل نصف دائرة إما من جهة العين أو من صوب الرقبة.

وهنالك "الوسم" بالكي وهو الأصل ومنه الاسم، ويستحدث بواسطة "الميسم"، وهو عبارة عن قضيب معدني يحمل شكل الوسم، يتم إحماءه في النار إلى حد الاحمرار ويكوى به موضع "الوسم" فيأكل بحرارته شيئا من الجلد ليمنع نبات الشعر في الموضع الذي تم كيه فيكون موضعه علامة بارزة لا تتغير، وأكثر مواضع "الوسم" تكون في أصداغ وجوه الماشية، وقلما يتم "وسم" الآذان، وأولى علاماته "المطرق"،

وهو خط مستقيم على صدغ الموسومة إما أفقيا أو عموديا، ثم "الفَحْقَةّ"، وشكلها خطان مستقيمان يلتقيان إما من أعلى أو من أسفل، و"الحلقة" وتكون على شكل دائرة، و"الهلال" ويأخذ شكل نصف دائرة فتحته إما إلى الخارج أو إلى الداخل، وكل منهما يعد وسما، و"النَّقْرَةّ" وهي خط مستقيم مكانه مقدم الوجه ما بين الجبهة وأعلى الأنف، وتتشابه "الوسوم"، غير أن الاتساع يأتي في مواضعها، فمنهم من يسم من يمين وغيرهم من يسار وآخرون من يمين ويسار، وأقوام يجمعون ما بين وسمين في آن، وسواهم من يجمع بين "وسمي" الأداة الحادة والميسم من باب الاتساع والمخالفة.

وتوسم الإبل على ألواحها وهي الجهة التي تقابل الإبط من الخارج، وعلى أوراكها، ويكون وسمها على إحدى القوائم الأمامية أو الخلفية أو على كلتيهما أو من خلاف، وطريقة "وسم" الإبل تكون بأن "تناخ" أي تبرك ويتم "عقلها" بربط ساقيها إلى عضديها حيث يتطابق الوظيف مع الذراع عند البروك فيحكمون ربطها بواسطة "المرير"، وهو حبل من غزل الوبر يسمونه (عقال)، يثبتون به قوائمها الأمامية لمنعها من النهوض أو الهياج، ثم يثنون عنقها بواسطة "العنان" إلى الجهة الأخرى ويعملون على تثبيت "الميسم" المعد مسبقا في المكان المراد وسمه إلى أن يسطو بحرارته في الجلد. ولا توسم الخيل إكراما لها ولأنها تعرف بأسمائها وأنسابها، كما لا توسم البهائم لقلة الاهتمام بها.

والماشية إن أريد وسمها باستخدام الأداة الحادة وسمت وهي قائمة أما في حال استخدام "الميسم" فيتم وسمها بأن يلذع موضع "الوسم" بالجانب المحمى من

"الميسم" إلى أن يهتك أول الجلد، بعد طرح الشاة أرضا وتقييدها بالمخالفة بين قوائمها لتجمع إلى بعضها بواسطة القيد الذي يطلقون عليه اسم "كرباس" وهو قطعة حبل من غزل الصوف تستخدم قيدا للماشية، ويسمون ماشيتهم في موسم "القصاص" وهو موعد جز الصوف.

القصاص

﴿١٧﴾

بين أواخر "اللوايا"، أي آخر أيام الربيع حيث تزول غضارة الأعشاب فتلتوي عروقها، وأوائل "القيظ" الذي يشتمل على أشهر الصيف، يقع شهر "الخميس" حسب تقويم أهل البادية، وهو اعتدال ما بين البرد القارس، حيث حاجة الماشية إلى أصوافها وشعورها التي تمدها بالدفء، والحر الشديد، الذي يوجب على أصحاب الماشية التخفيف عنها مما تحمل ظهورها، بجز الأصواف وقص الشعور، وما أن يحل موسم "القصاص" حتى يكون أهل البادية قد أنهوا تحضير أدواته، فيكونوا قد عملوا على "صرف" المقصات، أي شحذها لإرهاف حدها لدى "الصانع" الذي إن لم يكن برفقتهم توجهوا إليه، ويصنع الأمواس والمِدى، و"المقصات" التي يستخدمونها في جز الصوف وقص الشعر.

واستخدموا "الجلم"، وهو مقص كبير يصنع من الحديد المقوى، له ذراعان يتلاشى عرضهما إلى الأمام حتى يصيرا مدببي الطرفين لسهولة الولوج في الصوف أو الشعر، مرهفا الحافتين من الداخل لإجادة القص، يثبتان إلى بعضهما بمحور من نهاية الحد المرهف يسهل حركتهما انفراجا وانطباقا، ينشأ من بعد محورهما مقبضان على شكل عروتين يجعل حولهما لبد الصوف الذي يثبت بالخيوط لوقاية يد "القصَّاص" الذي يباشر جز الصوف من سطوة حواف الحديد، كما استخدموا "المقراض" و"المقص" وهما كما "الجلم" إلا أنهما أصغر حجما.

وعند مباشرة "القصاص" يتم طرح الشاة أرضا بجعل عرض بدنها مع عرض بدن "القصَّاص" ورفعها للأعلىٰ من قائمتيها الخارجيتين وإلقائها علىٰ الأرض برفق علىٰ أحد جنبيها، ثم تربط قوائمها الأربعة بعد جمعها والمخالفة بينها بواسطة "الكرباس"، وهو قيد يفتل من خيوط غزل الصوف، أما إن كانت الشاة "متلي" فيجمع بين ثلاث قوائم بحيث تكون إحدىٰ قائمتيها الخلفيتين طليقة كي لا يتأثر حملها، وبعد أن يعمل "القصَّاص" علىٰ تخليص الشاة من "الوَذَح" وإزالة "القلق" وكلاهما ما يتلبد بأطراف أصوافها من الأوساخ، تبدأ عملية جز الصوف من أسفل البطن ومع عرض البدن وإلىٰ الأعلىٰ، بالكشف عن أصول الصوف بإحدىٰ اليدين لإدخال "الجلم" بين مساربه ومواصلة الجز بتتابع حتىٰ أعلىٰ الظهر، ثم يقوم "القصَّاص" بجعل الصوف المجزوز والذي يبقىٰ متماسكا إلىٰ الجهة الأخرىٰ من بدن الشاة التي يحولها إلىٰ الشق الثاني من البدن بالإمساك بمجمع قوائمها وجذبها للطرف الآخر ليظهر جانبها الذي لم يجز ليستكمله مع ما سبق جزه مبتدئا من حد الجز أعلىٰ الظهر وإلىٰ الأسفل حتىٰ يخلص "الجزة"، وهي كتلة الصوف التي تلتبس جلد الشاة، حيث تفرد بكاملها للخارج وتطوىٰ للداخل وتربط من أطرافها بواسطة "العُذوق" واحدها "عِذق" وهو الخصلة الواحدة من الصوف يتم فتلها وربطها مع خصلة أخرىٰ تقابلها لتكون "الجزة" علىٰ شكل كتلة، وما أن ينهي "القصَّاص" جز الشاة حتىٰ ينتقل إلىٰ شاة أخرىٰ سبق "طرحها"، إذ من عادتهم "طرح" أكثر من شاة ليتعرق جلدها من جهدها وهي تنازع "الكرباس" مما يسهل ولوج "الجلم" بين "عذوقها".

ويتم "جَلّد" أو "تظليل" الماشية في القصاص، و"الجلد" أن يتم تخليص بدن الشاة من كامل صوفها فيما يستبقى منه شيء في "التظليل" إما على أكتافها أو على أعجازها أو كليهما، يسمون ما لم يجز "ظلة"، فالغالب في "الظَّهَر"، أي التي في سن النتاج أن يجز كامل صوفها، سوى "المراييع" التي لا يجزونها تمييزا لها ولقلة حركتها واستظلالها في شدة الحر بظل الدابة فلا تؤذيها أصوافها بالحرارة كما باقي الماشية التي تسوم في المرعى تحت وهج الشمس، فإن طالت أسافلها عملوا على "تشفيلها" بقص أطراف أصوافها من أسفل أبدانها، وقلما "يظللون" الكباش، فإن "ظللوها" جعلوا لها إما "ظلة" على الأكتاف أو "ظلتين" تكون الثانية على مؤخرة الظهر تمتد كل "ظلة" على جانبي دفتيه إلى حافة البدن من الأسفل ويستخلص الصوف مما بينهما ومن خلفهما من منطقتي "لبته" مقدم العنق و"إليته" مؤخرة بدنه، والغالب في ذكور "البهم" استبقاء "ظلة" على الأكتاف، و"القرقور" يستبقون له "ظلتين" تمييزا، ويقص كما الشاء إلا أن "القِصّب" أي صوف صغار الضأن لا يخلط مع صوف "الظهر" لعدم تجانسهما ولاختلاف استخدامهما، حيث يستخدم الصوف للغزل والنسيج واتخاذ الفرش، فيما يستخدم "القصب" على الأكثر في صناعة الأغطية.

وفي حين يتم جز أصواف الضأن "مطروحة" تقص شعور الماعز واقفا، حيث يبدأ "القصَّاص" باستبانة أصول الشعر بإحداث فجوة بواسطة "المقص" مع سلسلة ظهر العنز مبتدئا من مؤخرة ظهرها باتجاه مقدم أكتافها ثم يتحول إلى جانبها الأيمن مباشرا بالقص من الأعلى إلى الأسفل ومن خلف بدنها إلى مقدمته ممسكا خصل الشعر بيد ممرا "المقص" بين ثناياه باليد الأخرى ملقيا ما يقصه في أرض وقوفها حتى إذا أنهى

تحول إلى الجانب الأيسر مكررا ما كان منه في الجانب الأول غير أنه في هذه المرة يتجه بالقص من الأمام إلى الخلف، وفي جولة القصاص يتم قص جميع رؤوس الماعز في مكان واحد لجمع شعورها إلى بعضها ما لم تختلف ألوانها التي توجب فصل الألوان لصباغتها باللون الأسود قبل استعمالها، وقد استخدموا قشور "الرمان" التي تحيل الألوان الفاقعة إلى اللون الأسود بعد نقعها بمائه المغلي، والغالب في الماعز "الجلد" في القصاص ما عدا "التيوس" التي ربما "شفلوها" بأن يأخذوا من شعورها من أسافلها إلى أول أبدانها أو "سفروها" بحيث يرتفع القص حتى أواسط البدن ويستبقون ما على ظهره حتى منتصف بطنه، ويستبقون في منتصف بطن أحد جانبي "الشَّعَرِي" جمع "شعرية" قبضة من الشعر يطلقون عليها اسم "خُلْبَة" تمييزا لها عن الذكور من سنها التي لا يستبقون على جلودها شيئا. ومع شدة حذر "القصَّاص" ومرونته في القصاص إلا أنه قد يصيب جلد الشاة بحد "الجلم" من سرعته في القص فيحدث جرحا يغطيه باللبن الشديد الذي يضاف إليه الملح بكثافة لمنع الذباب من الوقوع عليه والإفساد فيه مما يؤدي إلى تخلق الدود.

ما أن ينتهي "القصَّاصون" من جز أصواف الضأن حتى يتجهوا إلى "السروب" و"الخضاب"، و"السروب" هو غسل أبدان الماشية بالماء المضاف إليه "السموم" القاتلة للحشرات الضارة التي قد تعلق بجلودها بين ثنايا صوفها وغضون أرفاغها فتؤدي إلى سقمها، كما يضيفون بعض المواد الطاردة مثل "الفونيك" وهو محلول شبيه بالقطران غير أنه نفاذ الرائحة فتنفر منه الدويبات فلا تعود تلتصق بأطراف المواشي فتؤذيها، ويكون "التسريب" بأن يتمكن من يباشره من الشاة فيجعل

عنقها بين قائمتيه ويلزم صدرها بركبتيه متوجها إلى بدنها حاجزا "السروب" الذي يسكب على ظهرها يحتضنه بين ذراعيه ليجعله يتسرب على مهل إلى سائر بدن الشاة كي لا يسح عن الصوف سريعا، ثم يعمل على دلك جميع أجزاء جلدها مع إدامة سكب "السروب"، وبعد الانتهاء من معظم بدن الشاة يتحول إلى عنقها ولبتها، ويتحاشون "السروب" وقت الإخصاب كي لا تطغى رائحة الأول فيتأخر الثاني.

أما "الخضاب" فهو تزيين الماشية بإضافة الألوان التي يعتبرونها من التباهي فيما يقتنون باستخدام "المُغرة"، وهي صباغ أحمر يذاب بالماء بكثافة تطلى به أصواف "المراييع" بخطين عريضين في مواضع الأكتاف ممتدا إلى الدفتين، وأعجاز الظهور يمتدان إلى أسفل الجنبين ويتم تخليله بين "عذوق" الصوف حتى يتغلغل في أصوله ليثبت اللون لفترة أطول، يُجعل بين خطوط "المغرة" خطا أقل عرضا من "النيلة" وهي صبغة زرقاء تثبت بذات الطريقة التي استحدث فيها خضاب "المغرة" أو بدلك مكعبات "النيلة" في المكان المراد توشيحه باللون بعد ترطيبه بقليل من الماء، وقد "خضبوا" الفحول وبعض الشياه وبعضا من صغار "البهم".

وليس من السهل على أي أهل بيت من أهل البادية لوحدهم، أن ينجزوا أعمالهم في أوقاتها، أو يفرغوا من أشغالهم قبل فوات أوانها لما تتطلبه من جهد مجهد، ووقت طويل ما لم يتعاونوا فيما بينهم للتقليل من الجهد واختصار الوقت بالعمل الجماعي الذي بات من أعرافهم تحت مسمى "العونة".

العونة

﴿١٨﴾

يجتمع أهل البادية على عرف "العونة" كأحد مقومات حياتهم التي يكتنف جوانبها العناء، وتبتدر من بين غضونها المشقة، فلا يفرج كربها، ولا يسهل صعبها إلا التآزر على التخفيف من ثقل أوزارها التي لا يقوى أهل بيت بمفردهم على مجابهة أوابد أتونها، مما أوجب عليهم التعاضد فيما بينهم، والتعاون بين الأتراب والأقران لقضاء حوائجهم، وإنفاذ أمورهم، تسهيلا على أنفسهم من شدة معاناتهم التي يتلاشى ثقلها، ويخف حملها، مع "العونة"، فأهل البادية متعاونون لما تفرضه عليهم قسوة الظروف وشظف العيش، فيرفعون عنت مواكبة شؤون الحياة عن بعضهم بتعاونهم الذي يتحول عونا لكل منهم، فيجعلون مكابدتها أقل عناءً من انفراد كل امرئ بشأن نفسه الذي إن استطاعه حينا فلن يقوى عليه في كل حين، وإن تمكن من بعضه فلن يتمكن من كله.

و"العونة" تجسيد لجميع أشكال التكافل بين أهل الحي، تقوم بينهم بقوة وكأنها تأتي عرضا، وتسود في أنفسهم بلا تكليف، ولا تتطلب طلبا ممن يحتاجها، فلا يشعر المرء من أهل البادية بالوحدة حين يفزع إليه من حوله، يرفعون عنه الأثقال ويخففون عن كاهله الأحمال، ليكون في حين آخر عونا لغيره كما تلقى العون من سواه، لتصبح "العونة" وسيلة لترسيخ الوفاء، ومدعاة لتقوية الأواصر، والطريقة المثلى لشد الأزر، وتقوية اللحمة.

فأهل البادية يقربون قصيهم، ويرفعون ضعيفهم، ويأخذون بيد فقيرهم، فيعينونه علىٰ تكاليف الحياة بلا منةٍ منهم ولا ذلةٍ منه، يدفعون إليه "منوحة" بيته ليكون كمثلهم، و"المنوحة" مفرد "منايح" وتعد إحدىٰ أشكال العونة وهي اصطلاح عند أهل البادية، وتكون بأن يقدم من يمتلك الماشية في موسم الإدرار لمن لا يمتلكها بعضا من "الحلايب" واحدتها "حلابة"، وهي شاة من الضأن أو الماعز نتجت لعامها، تقدم لصاحب الحاجة من أهل حيِّه، وقد يجتمع لدىٰ "الممنَّح" وهو متلقي "المنايح" ما يوازي أصحاب الماشية، ليعتني بها طيلة الموسم كما "القناية"، أي أصحاب "القنية" من أهل الحي، وله حليبها وأصوافها وشعورها، لرفع الحرج عنه من أن يتلقىٰ "الطعمة"، وهي إرسال الطعام عموما، ويقصد بها هنا إرسال الحليب أو ما يشتق منه، حتىٰ إذا حان "الغِراز" دفع بها إلىٰ أهلها فمنهم من يستعيدها، ومنهم من اعتبرها "غبينية" والكلمة نسبة إلىٰ أحدهم ويفهم منها أنها غير مردودة، ليتحول اسمها حينئذ إلىٰ "المنيحة" أي الأعطية.

وتعاون الرعاة فيما بينهم علىٰ رعاية الماشية باقترابهم من بعضهم أو بخلط بعض القطعان مع بعضها لينوب أحدهم عن رفيقه في الاهتمام بقطيعه ليفرغ الآخر لشأن نفسه يوما أو بعض يوم يقضي خلالها حوائج بيته، واشتركوا في طعامهم وشرابهم ليسهل عليهم إعداده كي لا ينشغلوا جميعا مما يؤدي إلىٰ إهمال الماشية، ووردوا المناهل فسبق منهم السقاة لملء الأحواض تاركا قطيعه مع لعناية رفاقه الذين في يوم آخر يأخذون دوره ليأخذ دورهم، وجمعوا قطعانهم عند المبيت ليتفرقوا حولها

وقت المنام لتسهل عليهم حراستها ولربما تناوبوا السهر إن خشوا ما يحذرون ليكونوا أكثر أمنا على أنفسهم وما أؤتمنوا عليه.

وفي موسم القصاص يجتمع أهل الحي على قطيع من الماشية يحبسونه لجز صوفه أو قص شعره في حين باقي القطعان في "مفاليها"، إلى أن ينتهوا منه ليتحولوا إلى قطيع آخر إلى أن تستكمل جميع "الشلايا"، والقطيع الذي لا يحتمل جزه عند اجتماع "العونة" أكثر من سحابة يوم برخاء، يحتاج بدونها إلى أيام طوال وجهد عنت فضلا عن احتباسه عن المرعى، وكذلك يفعلون عند "السروب".

وتتعاون النسوة في الغزل، لإنجاز أعمالهن في وقت لا يمكن لواحدة بمفردها أن تفرغ من عملها في وقته دون أن تعاونها نسوة الحي ليأتي دورها في إعانتهن بعد الانتهاء من عملها، إذ تقتسم النساء الشعر والصوف، ويعملن على "غزله" و"برمه" في منازلهن وهن يواصلن رعاية شؤون بيوتهن، أو ربما اجتمعن في بيت من يفزعن لإعانتها في وقت "العونة" ليعملن سويا، وتعاونَّ في النسيج بأن يأخذن شيئا من الجهد عن بعضهن للتخفيف من الإنهاك الذي قد يصيب الواحدة إذا انفردت بالعمل لوحدها، وتعاونوا على خياطة البيوت عند تجديدها أواخر الخريف استعدادا لفصل الشتاء وعلى بنائها كما تعاونوا في الرحيل والنـزيل حيث العناء في طي بيوت الشعر وتحميلها عند الرحيل، وبسطها وبنائها حين النـزيل.

وتعاونت النسوة في الورود فأعنَّ بعضهن في زكر "القرب"، وتناوبن حملها على متونهن إذا ابتعد المنهل عن المنـزل، وتساعدن في ملء "الروايا" وتنـزيلها عن

ظهور الدواب، مثلما تعاضدن عند الاحتطاب في شد حُزَم الحطب بالحبال وقرنها وتحميلها وإنزالها ومعادلة "الشلفان"، كما تعاونَّ في الاحتلاب، فتعين من تحتلب عددا أقل من الماشية جارتها التي تحتلب قطيعا أكثر، وتساعدن في "الخضيض" و"التقشيد" وتصنيع "الجميد"، ومن قبل يكن قد أسعفن بعضهن في خرز "الشكاء" و"دبغها".

ويتعاون الرجال والنساء كل في شأنه عند الولائم، فالرجال من أهل "العونة" يتعاونون على ذبح الشاء وسلخها وجزرها لا يتواكلون بالعمل بل يجدون وكأن الأمر يخص كل واحد منهم كي لا ينشغل أصحاب الوليمة العمل وجعلهم يتفرغون لشؤون أخرى تتوجب عليهم بذاتهم ولا تجدي معها "العونة" كاستقبال المدعوين ومجالستهم والحديث إليهم والقيام بأمرهم استكمالا لواجبات الضيافة، والنساء يتفرقن في العمل بين جلب الماء وإحضار الحطب وإعداد الطعام والقيام بسائر شؤون منـزل أصحاب الوليمة ما خلا أمورا تتعلق بأرباب المنـزل.

وتقوم "العونة" عند أهل البادية في كل شأن من شؤون حياتهم يتوجب فيه إسعاف الحال تخفيفا عن بعضهم من كلفة لا يستطيعها واحدهم منفردا عن الجماعة، فحملوا عن صاحب الشأن شيئا مما يقتدرون عليه بلا تكلف مبتذل أو ابتغاء التظاهر المشين، ففي التعازي يأتي المعزي ومعه ما يعتقده كلفة مقدمه على من يعزيه، محضرا "ذبيحة" إما أن تذبح لمن جاء بها فتكون واجب ضيافته أو أن يمتنع منها من أحضرها لتكون "عونة" لمن قيدت إليه كي لا يتكلف من ماله، وفي النوازل يهبون لإعانة من

وقعت عليه جائحة أصابت ماله أو أهل بيته، فيرفعون عنه ما استطاعوا ويعينونه على مصابه، وأكرموا قدوم المواليد بالعطايا وقدموا الهدايا عند ختان الصبيان.

وأكثر ما تتجلى "العونة" عند أهل البادية في الزواج، إذ يعينون المتزوج على تكاليف زواجه في عرف راسخ لا يلقي تبعات على من يقدم "العونة" أكثر من قدرته دون أن يواجه عتبا ممن قدموا له سالفا، فاعتادوا تقديم "القوائد" وتلفظ الهمزة ياءً، واحدتها "قوادة" ولفظها بهمزة مخفوضة قبل القاف المرققة الساكنة والوقوف على التاء المربوطة هاءً، وهي شاة تقدم عونا من المدعو إلى الداعي على وليمة الزواج للتخفيف عليه من التكاليف، فمن لم يقتدر عليها قدم من "العونة" ما هو أقل من ذلك من الأشياء العينية التي تسهم في المساعدة على أمر الزواج، ومنهم من قدم قدرا من المال تحت اسم "النقوط"، وللكلمة صلة في "النقود" والكلمتان في المعنى واحد وإن كانت الثانية تمييزا للأولى.

الزواج

﴿١٩﴾

ربما اختلف عرف الزواج عند أهل البادية عن غيره من المجتمعات لدور المرأة في المجتمع البدوي الذي يعتبرها إحدىٰ أهم ركائزه، لامتداد دورها من بؤرة الأسرة إلىٰ إطارها الذي يتكون نسيجه من ذوي القربىٰ والأرحام والجوار، فالمرأة في البادية يعول عليها المجتمع الذي يقوم علىٰ قوة الروابط الاجتماعية التي تعتمد علىٰ قوة الترابط الأسري التي تقويها أو تضعفها المرأة، فالمرأة هي التي تجمع وهي التي تفرق، فإن كانت الأولىٰ استقامت الأسرة واستوت مكانتها، وإن كانت الثانية تجافت عن مبتغاها وتناءت عن الجماعة فضعفت أسبابها التي تفقدها قوتها وقدرتها وتقلل من شأنها لابتعادها عن موطن القوة التي لا تكون إلا مع الجماعة.

فالمرأة البدوية بعرف أهل البادية يجب أن تكون متوافقة مع من تصير إليهم في الجانب الإنساني، تعطف علىٰ الصغير وتجل الكبير، غير متجافية فيمن تحل فيهم في الجانب المعاشي، فلا تفتعل تفريقا بين ما كانت فيه وما صارت إليه، فهي تنتقل من قوم ألفوا واعتادوا الجماعة إلىٰ أصنائهم في الألفة والعادة، ومن أسرة هذا حالها إلىٰ أسرة أخرىٰ لا تفترق عنها في الحال، ومن بيت يقوم علىٰ ذات الأعراف التي يقوم عليها البيت الذي تنتقل إليه، لذا خطبوا من النساء من ثبت في أهلها المودة وصلة الرحم، واللين وسمو الخلق، وعزة النفس وذروة النسب، وطيب السجايا ورفعة

الحسب، لتجتمع فيها محاسن الخصال ومحامد الخلال التي تورث للنسل بحكم العِرق، فتنتقل الشمائل والصفات من الآباء والأمهات إلى الأبناء والبنات.

فإن خطبوا من بنات أهل الحي تكون قد سبقت معرفتها، فيعزمون أمرهم ويعقدون رأيهم، وإن كانت "المخطوبة" من حي قصي استقصوا منابت العم والخال، فتتبعوا نقاء أصل المخطوبة من جهة عمومة أبيها وخؤولته، فإن اطمأنوا في استقصائهم، مالوا إلى أخوالها نسبا وطبعا، ثم تعدوا إلى عِرق أمها وخالاتها وجداتها، وتعدوا في سبر الأنساب إلى خؤولة الخؤولة من لدن الأب والأم، فإن وجدوا ما يشوب العِرق في شراكة النسب عزفوا، وإن تثبتوا من صراحته أرسلوا "النَّقَّادات" واحدتهن "نقَّادة"، وهن نساء ثقات مؤتمنات يرسلن من جهة أهل "الخاطب" إلى أهل "المخطوبة" من أجل "النقد"، وهو استبانة صفاتها الخلقية والأخلاقية، ولا يتوقف عمل "النقادات" على سيماء "المخطوبة" بل يتعداها إلى ذويها، فيستبصرن أمها وأخواتها، وينظرن إخوانها من الصبية الذين يبدر منهم ما يشي بحاجتهن، ويرسلن أبصارهن إلى الرجال من دون ريبة ليختبرن ما هم عليه من الحصافة والرزانة، ويعدن بعد ضيافتهن بخبر إن لم يكن منفرا كلف الخاطب أحد الرجال الثقات يسمى "مرسالا" لاستجلاء رأي ولي "المخطوبة" الذي له تقصي نسب وحسب "الخاطب"، فإن عاد "المرسال" بما يوافق طلب "المرسل" ذهب "الخاطب" بنفسه أو أحد ذويه "خاطبا"، فإما أن يعطي ولي "المخطوبة" و"الخاطب" يجزي، أو أن يحدد المخطوب إليه "الفيد" وهو "المهر" ويطلقون عليه اسم "السِّياق" لأنه غالبا ما كان يساق من

الماشية، وحينها لا يجادل "الخاطب" إذ ذلك من شأن "الجاهة" التي تأخذ اسمها من "الجاه" وهو رفعة المكانة ووقارها.

و"الجاهة"، رجل ليس من قلة، أو نفر لا لأجل كثرة، ثقال رزان، مهابون وقورون، لهم قدرهم الذي لا يُنـزل به، ونفاذ رأيهم الذي لا يُخالف اعتداله، يحملون أمانة تتعدىٰ الفرد إلىٰ الجماعة، لا يتجاوزون العرف السائد، ولا يغالون فوق العادة المتبعة، لا يبخسون من يقبلون عليه، ولا يجورون علىٰ من أقبلوا من جهته، يوازنون بين الطرفين عرفا يتبع، كي لا يكون الأمر رغبة في المغالاة، تؤول إلىٰ سنة إن استطاعها أحدهم ثقلت علىٰ غيره، ولا إزراءً بأقدار الآخرين تلوكها الألسن ازدراءً، فإن تلقت "الجاهة" إيجاب ولي "المخطوبة" عادت بالقبول، ليُنقَدَ "الفيد"، ومعناه إعطاء المال صداقا للمرأة، أو يُدفَعَ "المهر"، والاسم مأخوذ إما من كرامة المرأة، لأن "المهيرة" تعني المرأة الحرة، أو منسوب إلىٰ "المِهار" جمع "مُهر" علىٰ التذكير والتأنيث، ويمكن تأنيث اللفظ علىٰ "مهرة"، وهي من نسل كرائم الخيل التي كانت تدفع جزءاً من الصداق، أو يُساقَ "السِّياق"، ويعود الاسم إلىٰ سوق الماشية التي كانت قوام صداق الزواج عند أهل البادية، ومن بعد يحدد موعد الزفاف الذي غالبا ما يختارونه قريبا من اكتمال القمر للاستضاءة بضوئه في ليالي سمرهم.

ومع اقتراب موعد "الزفاف" تتهيأ "العروس" بالجهاز الذي يشتمل علىٰ الفُرش واللباس يعده أهلها من "المهر" الذي سيق إليها، وتهيأ للزفاف، وزينة المرأة في البادية "الوشم" وهو صبغ يميل لونه إلىٰ الاخضرار تثبت رسومه بتناسق بواسطة

الوخز بالإبر في المناطق التي يراد "وشمها" وأكثره يكون في الوجه ومواضعه معقد الحاجبين أسفل الجبهة وأعلى ما نبا من الوجنتين وفيما استرسل من الذقن، وفي ظاهر اليدين وأرساغ الكفين، ومن الزينة "الخضاب"، ويستحدث من مسحوق نبت الحناء الذي يمزج كثيفا بالماء ويترك حتى يختمر لتغطى به راحتي الكفين وأجزاءً من ظاهر اليدين ليتحول لونه بعد ليلة إلى الأحمر القاني ويدوم لوقت قبل تلاشيه.

وحلي المرأة البدوية، "القلادة" وهي عدد من حبات الذهب تثبت عراها بسلسلة معدنية أو على قطعة مستدقة من نسيج الحرير تطوق الرقبة فتسترسل القلادة إلى الصدر، و"الكِردان" وغالبا ما يكون من قطع الفضة الموشاة بالأحبار والمحلاة بشذر الأحجار الكريمة، سلسلته تحيط بالعنق وحِليُّه رتيبة الصفوف تزين الترائب، و"السوار" وهو حلقة مغلقة من الذهب أو الفضة تدخل من الكف إلى المعصم، و"القُلب" وأكثر ما يكون من الفضة وهو أقل إحاطة بالمعصم من السوار ويدخل باليد حيث مسترق الرسغ من خلال فتحة بين طرفيه غير المتصلين، و"الدملج" وهو كما "القُلب" إلا أن موضعه العضد، وتضع بعض النساء "الزميمة" ولفظها بصيغة التصغير، وهي حلقة رقيقة من المعدن النفيس تجعل في ثقب يستحدث للفتاة من صغرها في "الشناف" من الخارج وهو عروة المنخر من الأنف، وتعلق الأقراط في أذنيها ويطلقون عليها اسم "التراكي"، جمعا لا مفرد له، وطيبها "المعشَّق" وهو عطر يصطنع من مساحيق النباتات العطرية بعد جفافها ركيزتها "القرنفل"، وهو ثمر أشجار عطرية حاد الطعم نافذ الرائحة عند ترطيبه بالدهن لاستمرار ثبات رائحته، يُلاب (أي يخلط) مع إلية صغار "البهم" لقلة "زهومتها" أي رائحة دسم دهنها.

ويُشعر أهل "العريس" بقرب موعد الزفاف برفع "البيارق"، وهي رايات بيضاء يجعلونها على "مقادم" البيت، وإقامة "المصونع" بساحة الحي، وهو هيكل على شكل تمثال يتخذونه من الأعمدة والأكسية، إيذانا لمن حولهم واستدلالا للزائر من بعيد بإقامة الفرح، ويرسلون "العزامين" جمع "عزام" وهو الشخص المكلف بالدعوة، لإبلاغ من نأت منازلهم يدعونهم لحضور الوليمة، ويدعون أهل الحي الذين يقبلون مع أول الليل "حداةً" أي يرددون "الحداء" وهو جنس من الغناء، "سراة" ويلفظ الاسم بهمزة مخفوضة قبل السين الساكنة، وهم "السارون" ليلا، جمع "ساري" لإقامة "السامر" لليالٍ قبل الوليمة.

و"السامر" سهر مصحوب بالغناء، يقوم به سربة من الرجال يصطفون إلى جانب بعضهم يتقدمهم أو يتوسطهم "البداع"، وهو أحدهم ممن يقتدر على ابتداع القصيد سواء من حفظه أو إنشائه، يردد من خلفه بعض الرجال ممن تتجانس أصواتهم، ويطلقون على "السامر" اسم "السحجة"، ولفظها بهمزة القطع وسكون السين وفتح الحاء والجيم والوقوف على التاء المربطة هاءً، ومعناها "سحج" إحدى الكفين أثناء الصفق عن الأخرى، وهي حركة تلازم "السامر"، كما أطلقوا عليه اسم "الرقصة"، وهو مأخوذ من رقص "الحواشي" واحدتها "حاشي" وهي امرأة تبرز بكامل زينتها وحشمتها تستعرض أمام "السامر" بحركات رزينة ورتيبة "يدارجها" أي يراقصها أحد محارمها من الرجال أو "تدارجها" إحدى النساء.

بعد الوليمة تتوجه "الفرادات"، وهن مجموعة من النساء يذهبن بصحبة بعض الرجال إلى بيت أهل "العروس" لزفافها إن كانوا من مقيمي الحي، أو أن تذهب النسوة لوحدهن إلى بيت مستضيفها إذ يكون قد سبق زفافها قبل يوم الوليمة إذا كان منزل أهلها قصيا، تأتي بصحبة "الفاردة" على "الهودج" وهو مَحْمَلٌ مكلل من جميع جوانبه بالستائر من "السجوف" وهي أقمشة رقيقة تغطي "الهودج" على ظهر الجمل، لتحل ضيفة عند أحد أهل الحي الذي يطلب استضافتها تكريما لها، حتى إذا جاءت "الفرادات" أمر زوجته بإعدادها كأنه وليها لتصحب إلى بيت زوجها إن كان قاطنا لوحده، أو إلى "البرزة"، وهي بيت يبرز جانبا من الحي إن كان الزوج يسكن بيت أهله، تقيم فيه "العروس" سبعة أيام ونساء الحي يدمن زيارتها لتأنس قبل أن تنتقل إلى بيت أهل زوجها الذين يتفاءلون بمقدمها، وهم من قبل لا يخطبون إلا من حسن فأل أهلها.

الفأل

﴿٢٠﴾

أهل البادية شديدو الطيرة، حتى أنهم عدوا الطير في كبد السماء نذيرا، فيشمئزون من نعيق الغراب وينفرون من صوت البوم، ويتشاءمون من جرأة الرخم ذلك الطائر الضعيف، واستقبحوا ما لم تستوي سنحته من المخلوقات، وجفلوا من أسمائها، واستعاذوا من ذكرها الذي اعتقدوا فيه الشؤم، وهم مفرطون في التشاؤم، إلى حد أن الشارد من الكلام يفزعهم، والقول يلقى على عواهنه يأولونه طيرة مشؤومة، فأنكروا طريقة النداء، وتوجسوا من الكلمة العوراء، وانقبضت حيازيمهم من ذكر بعض الأسماء، واقترنت حياتهم بالعوارض أول النهار، فإن استصبحوا بما يتشاءمون به ظلوا يومهم متجهمين متوجسين من أن يحل بهم ما يكرهون.

وهم إزاء ذلك مرهفو الحس، ترق أنفسهم لما يبعث على التفاؤل، وتهش جوانحهم لبشائره، تطفح وجوههم بسيماه، وتبسط أساريرهم علاماته، ولا تخفى في عيونهم دلائله، فإن واتاهم الفأل الحسن طفقوا سرورا، وإن صادفهم عارض البشر فاضوا حبورا، وهم على ذلك مطبوعون، فصار ذلك الطبع من جبلَّتهم التي لا يستطيعون مجافاته وإن اجتهدوا، واستقرَّ ديدنا في وجدانهم يقودهم إلى الاستشراف فينقادون له بنفس طيعة، وعريكة لينة، لا يخالفون إمارات العوارض، بل يعيدون ما يكون في قابل الأيام إلى ما طرفت به أبصارهم في سالفها، أو صاخت إليه أسماعهم في

غابرها، أو خفقت له أفئدتهم في ماضيها، فانتابهم حينها ما يؤكد تحقيقها، واعتراهم ما لا يشكون للحظة بوقوع أثره.

ففي حيز ضيق لا تستبان لواحبه، وبرزخ دقيق لا يكاد يفصل بين الفأل الحسن والعارض المشؤوم يعيشون حياتهم بحذر ونذر، يحدقون بعيون الريبة بالعوارض من حولهم التي قد تكون بَوَارِحَ وفق ما يفقهون، ويحملقون بعيون الرجاء فيما يظنونه سانحا وفق ما يؤملون، ويشغلون حدة أذهانهم بتأويل الكلمات التي تصخب أسماعهم لاحتمالها وجهي المسألة، فتنتقل معانيها من الشؤم إلى الفأل، أو من حسن الطالع إلى سوء العاقبة بتفاسيرهم لقرائنها التي تبتعد مدلولاتها عن غيرهم، أو تعجم إشاراتها على سواهم، فهم الذين أقرت أنفسهم بخفاياها، ووجهوا عقولهم لاستنباط مكنونات أسرارها.

فأهل البادية متأثرون بالطالع مع أول نهارهم، وأول طالعهم مطالع الكلام، فالكلمة لها أثرها في أنفسهم، فإما أن يستقيم يومهم لسماع ما يبعث على التفاؤل، أو تعكر صفوهم إذا جاء القول جافيا يحمل في نبرته ما يوحي بالتشاؤم، فارتابوا من الكلمة النابية، وجفلوا من اللفظ المشين وعدوه فألا سيئا، وسفهوا من لا يحسن ابتداء الخطاب، ويجيد استهلال القول، وتجنبوا من يلقي قوله بلا تروٍ ولا تبصر، فيقع منه ما يؤذي الأسماع، ويبعث على انقباض النفوس مما يحمل على سوء الطالع، ووقَّروا من ينتقي كلامه بتؤدة، ولا يتعجل الهذر، فيتحاشى شائن القول ويتجافى عن أرذل الكلم،

فلا ينطق إلا بما حسن من المعنىٰ، واسترقَّ في المغزىٰ، مما يرقُّ علىٰ السمع، فلا تنفر منه النفس، ولا تتجهم منه الأسارير.

فالنداء عند أهل البادية أول بوادر الفأل، فرقّوا في نداء من يعرفون بأحب الأسماء وأحسن الصفات لتطيب نفس المنادىٰ، ونادوا من لا يعرفون بالرّشد والفلاح، ليأتي الجواب بالعون والخير سماحة في القول من الجانبين، يبعث في نفس كليهما البشاشة التي تبعث علىٰ الفأل الحسن، فإن صدر النداء فظا غليظا التُمِسَ فيه الجفاء، جاء الجواب جلفا نفورا ينبئ بنكران سوية الطباع التي تقبض الصدر فتهيج النفس لتحذر ما وراء نبرة الصوت وجلبة الرد، لذا حرصوا علىٰ حسن الابتداء ليحسن الانتهاء، وتأنّوا في إرسال الخطاب كي لا يُتَعَجَّلَ الجواب.

والمرأة البدوية لا ترد علىٰ زوجها عند النداء بأدوات التنبيه أو أفعال الجمود أو ألفاظ الجحود أو إشارات الغموض، ولا يكون الجواب بما يشير إلىٰ القنوط، بل يرق كلامها ببواعث الخير، ويأتي قولها مرجّيا للعون، فجوابها علىٰ النداء مثل "عونك" و"خير" و"أبشر" و"عندك" و"جيتك" بتليين همزة "جئتك"، وما شابه من الأقوال التي تتساوق مع راحة النفس وطيب الخاطر، ولا تنكر حاجة مع عدم وجودها، فإن طلب زوجها شيئا كان يعتقد وجوده أجابته بأحسن القول، فإن لم تحضره أو أحضرت غيره لم يستنكر فعلها لأنه قد علم نفاده من تصرفها وقد منعها من التصريح بالقول حسن الفأل، ولا تبدي ما يشعر بالفاقة، فأهل البادية تميل طباعهم إلىٰ القناعة، فلا يصفون القليل بالقلة التي توحي بعدم الرضى الذي يمحق الرزق، في

حين يصفون الكثير بكلمة "البركة" أو "البحر" لا بالكم الذي يؤدي معنى التفاخر الذي يقود إلى البطر الذي يؤدي إلى زوال النعمة، فإن سئل زري الحال عن حاله حمد وشكر على أمل أن يكون ما يوجب الحمد والشكر، وإمعانا في التفاؤل لا يتكلمون بألفاظ تحتمل معاني البؤس أو تأول إلى غير ما يتفاءلون به.

ومن أراد السير إلى وجهة يبتغيها، لم يتكلم ولا يكلم إلا بما هو خير، وبكَّر الخروج، فالبكور عندهم من حسن الفأل، وتخير الدرب التي يسلكها اتقاء مصادفة عارض، وأرهف السمع وأنعم البصر لكل هامة ونامة، وكرهوا العودة ولو لأشد ضرورة، فمن عاد منهم بحكم شدة الحاجة لم يتابع مسيره يومه ذاك، واختلجه هاجس ينبئه بعدم انقضاء حاجته التي لم يتواصل دربها من أوله، فإن لان دربه وسهل مسيره واستصبح بمن يأنس له استبشر خيرا وقرت نفسه ولو عاد من رحلته خالي الوفاض، واحتالوا على أنفسهم فحولوا الشر خيرا، وجعلوا المفقود موجودا، إمعانا في التفاؤل الذي يلتصق بجوانحهم ويمتلك لباب ألبابهم، فقالوا للزائل من نعمائهم (زال الشر) وسارعوا إلى سلواه أملا في عِوَضٍ خيرا منه، وللمحطوم من أدواتهم (كسر الشر) واعتبروه فدى لما هو أفضل منه، وللغادي الذي أعياهم البحث عنه (لا يضيع إلا ما قُطِعَ منه النصيب).

واستشعروا ما يجري في قابل أيامهم بما تنبئ به حواسهم أو ينتاب جوارحهم أو يهتف لهم في منامهم، فما اعترض كل حاسة وجارحة في أبدانهم أخذوه بالتأويل على ما قد يكون، وأقاموا دليلهم على صحة تفاسيرهم بوقائع سبقت فيهم أو فيمن

سواهم، ورؤى المنامات أشد أثرا في نفوسهم وأكثر يقينا في اعتقادهم وتصديقا في أحاديثهم يتداولونها كأنها حدثت عيانا، فهي اليقين الذي لا يغالبه الشك، والحقيقة التي لا ريب فيها.

فالإحساس بانقباض صدورهم دون سبب يعيدون إليه الشعور بتلك الحالة، جعلهم يتوجسون خيفة على الغائب الذي طالت غيبته، أو ربما خشوا على مرضاهم الذين أعياهم السقم، فسارعوا إلى "التميتمة" لكشف سر الغائب والتنبؤ بحال المريض، واللفظ على صيغة التصغير وهو مأخوذ من "التمتمة" أي القول الخفيض الذي لا يكاد يفهمه السامع، وتقوم به امرأة من سلالة متمرسة تكشف عن ذراعها الأيمن واضعة كفها على رأسها ملتفتة إلى زندها وهي تتمتم بشأن الغائب أو بحال المريض، فإن ارتعدت عضلة عضدها أخبرت بخير وإلا أعادت الكَرَّة لعل وعسى، ومع عارض الانقباض يزدادون حرصا على صغارهم من أمر لا يعرفون كنهه، ويبقون مرتابين لا يتحدثون بما يعتريهم حتى يحدث ما يبدد القلق في نفوسهم، عندها يوحي من انتابه هذا الشأن إلى من حوله بما اعتراه معتبرا هذا تأويل ذاك.

وتملكتهم جوارحهم بعوارضها، واستلبت إرادتهم فانقادوا لها بغير عناد، فدعاهم "طنين الأذن" إلى تذكر أرحامهم الغائبين الذين ذكروهم لوقتهم لشوقهم إليهم، ومن سرت في راحة يده اليمنى "حكة" أيقن مصافحة عزيز و"اللذعة" في طرف اللسان تعني السلام على من طال غيابه، وبَشَّرتهم "حكة اليد اليسرى" بقبض المال، وعَنَت لهم "حكة الرجل اليسرى" المشقة والعنت من تعب المسير، وإذا كانت

"الحكة" بالرجل اليمنى علموا بسقوط المطر، واستبشروا سرورا مع "طرفة" جفن العين اليسرى، وطلبوا تهوين الشر مع "رفَّة" جفن العين اليمنى التي يسارعون إلى إيقاف رفيفها بإلصاق قطعة من عود قش أعلى جفنها، واستعاذوا من "حكة" الوجنات أسفل العين حيث مسايل الدموع، وربطوا "استثارة الأنف" و"نزوع" قطعة من العجين خارج الوعاء أثناء اللت بمقدم الضيف على ما بين الحالتين من التباعد، وفسروا "البذح" وهو الجرح الصغير إذا وقع بين خنصر وبنصر الرجل اليمنى عند اليافعين بأنه استرسال بالطول.

ولكل رؤيا في المنام تأويلها الذي لا يشق عليهم، ولا يقع اختلاف بينهم على تفاسيرها، فشاهدوا الغائب أثناء نومهم، وبلغتهم أحواله، فحدثوا بالرؤيا التي يطمئنون إليها، وكتموا ما يسوءهم منها ابتعادا عن شؤم القول، ورأوا موتاهم وكلموهم كلام الأحياء، فصدقوا أخبارهم، وأخبروهم بأحوال خلفهم، وأنفذوا رغباتهم، ونفذوا وصاياهم، وأبلغوا ما حملوا من أمانة الرسالة أثناء محاورتهم إلى ذويهم، وأكرموهم في قبورهم صبيحة الرؤيا بالإيلام واهبين لهم ثواب ما يطعمون، أو تصدقوا بما يستطيعون، ورؤية الموتى لها دلائلها التي توافق الحال أحيانا، فمن اقتاده الميت وطاوعه في المسير أيقن شرا وخشي على نفسه، وإن أخذ الميت منه حاجة ارتاب، ومن أخذ من الميت شيئا فسروه بحسب ما صار إليه، فإن كان طيبا استبشر وإلا احتسب، وفسروا أحلامهم تفاسير تغاير حالاتها في أكثر الأحيان، فكرهوا لبس الثوب الأبيض في الرؤيا، وأكل الدر، وحضور الوليمة، وفسروا الفرح في المنام بضده

في الحقيقة، وعلى النقيض فسروا الحزن في الحلم، فجعلوا الضحك في المنام كربا والبكاء فرجا.

واستبشروا بطلوع الهلال، وانقبضوا مع كسوف الشمس، وتشاءموا لخسوف القمر فقرعوا الآنية ونفَّروا الماشية لإحداث جلبة حتى يعود كاملا، وظنوا مع سقوط النجم وقوع أمر جلل، واستشرفوا ما تضمر الأيام في طياتها من غرائز ما ألفوا من المخلوقات، فصرير الجندب في الليل ينبئهم بهاجرة النهار، والسباع تنقل جراءها من المهابط إلى الأعالي تعلمهم بنـزول فيض من السماء، و"صلَّبوا" لمعرفة الأنواء وأرخوا بعوارضها.

العوارض والأنواء

﴿٢١﴾

يقوم تقويم أهل البادية على تولد الهلال الذي لم يتوافق بتعداد أشهره مع المواسم والأنواء التي تأتي ثابتة في أزمنتها وفق مطلع الشمس، فمالوا إلى الفصول ليقرنوا مواقيتها باقتران القمر بالثريا، ليستقيم حسابهم وتواتيهم الأزمنة بأنوائها مع الفصول التي أطلقوا عليها أسماء الشهور وجزأوها إلى أوائل وأواسط وأواخر، كل جزء منها يعدل ما بين مطلع هلالين، وتوافقت أسماءها مع عوارضها من حر وقر، وانقباض واعتدال، واستكنان وانتجاع، ووفرة في الماء وخصب في الكلأ، وشح فيهما لتأتي الأسماء مطابقة لأحوال الأزمنة لا تخالف حسابهم.

ويتحرون تولد الأهلة بالتثبت من رؤيتها مع الغروب، ويرقبون تولد الهلال الجديد من حيث المشرق والمغرب مع آخر أيام الهلال الذي قبله، فما دام يظهر من المشرق قبل طلوع الشمس يكون من لياليه بقية التي يستطيعون تقدير عدتها بالنظر إلى حجمه الذي يقاس عمره بالليالي وحسابه بالأيام، فإن افتقدوا رؤيته من حيث المشرق أيقنوا بانقضاء عدته فتحولوا يتحرونه بُعيد غروب الشمس بقليل، فإن غمَّ عليهم أوله قدروا عمره بعدة الليالي عند ظهوره ليؤكدوا بخبرتهم متى كان بدءُه، وإن رأوه كان بدءُ حسابهم الذي يقوم عليه تقويمهم.

وأول أزمنة العام عندهم "الشتاء" الذي أطلقوا عليه اسم "كانون" وتلفظ الكاف جيما مفخمة، كما أسموه على الكثرة وطول الزمن وشدة الأنواء "كوانين" مع

الاتساق مع لفظ المفرد، وخلاله يحل القمر من "الثريا" وهي مجموعة نجوم ترى متقاربة من بعضها، في منازل عدة فتارة تسبق القمر فيقولون "تقوده" وتارة "يقودها" لأنه يتقدمها، وثالثة يقترنان لتنشأ خلال الشتاء ثلاث "قرانات"، و"القران" أن يتحاذيا أي يتجاوران بعد ليال من تولد القمر، وقسموا "كانون" إلى ثلاث "جمرات" و"الجمرة "دويبة" صغيرة ذات أجنحة تسقط متزامنة تقريبا مع كل "قران" فإن سقطت والوبر يغطي جلدها استبشروا بغزارة الشتاء، فاكتساءها بالوبر دليل على ضراوة الطقس وشدة البرد الناشئة عن غزارة المطر على عكس حال سقوطها وهي جرداء فيوحي لهم تجردها من الوبر بالدفء، وآخر "قرانات" الشتاء "قران السبيعي"، لمقارنة القمر الثريا على سبع ليال من تولده، وفيه من غزارة المطر وشدة البرد بعد الشعور بالدفء، ويطلقون عليه "قران العجائز" وتلفظ الهمزة ياءً بلهجة أهل البادية، مثلما يقولون عنه "المستقرضات"، ولهذه التسميات وحيها من القص الشعبي الذي استنطق المعجمات من البهائم والجمادات من المخلوقات، وأورد الكلام على ألسنة ما ليس بذي لسان كالأزمنة والأمكنة، فأنطق الأيام والليالي بلسان حال، وأوقع على أحوالها الأقوال، و"المستقرضات" سبع ليال، ثلاث آخر شهر من أشهر الشتاء، استنجدت مع انقضاء عدة الشهر بأول أربع ليال من أوائل أشهر الربيع لتنصرها على "العجوز" التي أمنت على نفسها وعلى ناقتها إدبار الشتاء، واطمأنت لإقبال الربيع الذي يأتي معه الدفء وعطاء الأرض، فازداد في هذه الليالي السبع صبيب المطر، واشتدَّ زمهرير البرد حتى اضطرت المرأة "العجوز" لنحر ناقتها الوحيدة لتقتات على لحمها وتستدفئ بجلدها، ولم تعد تأمن ليالي الزمان، و"الربيع" الذي هو

ثاني أزمنة السنة ويقسمونه إلى أول وأوسط، وآخره شهر الخميس وربما كان اسمه "الحميس" لبدء جفاف الأعشاب وسرعة زوال اخضرار الكلأ، والظن أنهم عدلوا بالاسم مجافاة للتشاؤم من اللفظ، ويؤكد ذلك أنهم أسموه بشهر "اللوايا" إتباعا لما يعتري فروع نبات المراعي من التوائها في بدء انتهاء موسمها، وفي نهايته "عيد الخضر" وهو أحد مواسمهم، يتلوه "صفر" وكذلك يقسمونه إلى أول وأوسط ويقولون عن آخره "أتلى" "صفر" ويطلقون عليه أشهر "القيظ" و"الصيف" يعقبه "جريدان".

و"جريدان" رابع أزمنة العام، وبه انطباق الحول، وأخذ اسمه من تجرد الأشجار من أوراقها، وخلاله تتقلب السماء ويختلف وجه الأرض، وتتأوب الريح بين هبوب جاف وحار تأتي به "الشراقي"، وهي الرياح التي تضطرب من بين جهتي الشرق والجنوب الشرقي، وهواء رطب يأتي بعد انقضاء شدة القيظ وإقبال لين الأنواء في أواسط هذا الزمن، حيث تدبر رياح السموم وتقبل نسائم تحمل رائحة الغيوم مع هبوب"الغرابي" التي تسوق السحاب، ومثارها من جهة الغرب والشمال الغربي، فمن بين اختلاجات الطبيعة واختلاف أحوالها وتباين أطراف أيامها يعمد أهل البادية إلى "التصليب" أواسط ليالي "جريدان" التي يكثر فيها "الطل" وهو الندى، بأن يتخذوا خمسة أكوام من الملح، كل كومة بقدر "لهوة" وهي ملء راحة اليد، يجعلون ثلاثة منها تحاذي بعضها يسمونها بأشهر الشتاء، وأسفل من أوسطها كومة يسمونها بآخر "جريدان" وخامسة فوق أوسط "كانون" يسمونها بأول الربيع لتبدو متقاطعة على شكل "صليب"، وهذه الأشهر الخمسة فيها مساقط الأمطار التي يطلقون عليها اسم "ثروي" بلفظ همزه خفيفة مخفوضة قبل الثاء الساكنة نسبة إلى "الثريا"، وهو المطر

الذي يثري الأرض ويبعث خراجها، وما قبله "الوسمي"، وما بعده "الحسوم"، ويستبقون الأكوام مكشوفة للندىٰ من أول الليل إلىٰ ما قبل الشروق ليروا أيها امتلأ ماء وساح ليعتقدوا فيه غزارة المطر فيطمئنون لقابل عامهم أو يتوجسون، ومنهم من اتخذ ستة أكوام من الملح بحساب هلالين من أهلة الربيع إلىٰ فصل الشتاء، وربما أعادوا "التصليب" أكثر من مرة علىٰ بضع ليال.

وقد أرَّخ أهل البادية بالعوارض والأنواء التي خالفت المألوف الذي اعتادوه، فمواسم شتائهم التي تزداد غزارة عن غيرها تبشرهم بالرخاء والبسط في النعماء اتخذوها تأريخا في حياتهم، وهبوط الثلج بما يتجاوز مألوفهم القريب صار في حساب أيامهم، كما اتخذوا "خَرَّة" النجم أي سقوطه من السماء وتركه أثرا في الأرض تاريخا قاطعا في مفاصل حياتهم، والسيل الجارف من علامات تاريخهم، والرعد بقضه وتتابعه جزء مما يؤرخون به، وهو يبعث علىٰ طفح "الفطر"، وهو من ثمار باطن الأرض ينمو علىٰ شكل أقراص بيضاء ناصعة، يكبر حجمه ويزداد نتاجه في أعوام الرخاء وهي التي يتتابع فيها الرعد، وأجوده ما كان نبته في السهل، وكذلك "الكما" وتلفظ الكاف جيما مغلظة، وهو ثمر منبته أرض الحماد والحزن من أرض السهل، وموسمه أواسط الربيع، وهو يشبه "الفطر" إلا أن ثمرته مكورة ولونها يميل إلىٰ الغبرة، وكلتا الثمرتين تستخدمان إداما بالطهي أو الشواء، وصارت تلك الأنواء وعوارضها مواقيتا لتاريخهم ببعدها بتمام الحول عما يؤرخون له أو قربها منه، وتبقىٰ هذه الأنواء وعوارضها مرتكز تأريخهم حتىٰ يحل نوء آخر يبتدئون به كي لا يطول الزمن بينهم وبين إمارات ما يواتيهم في غضونها.

وعلى نقيض من النعماء والسراء التي جادت بها الأنواء لتوسع عليهم رزقهم فاستمرأوا التأريخ بها، فقد حلت بهم سنين الجدب ومواسم القحط، فصارت بذاتها تاريخا يضرب أثره في حياتهم بما تخلفه فيهم من قلة في نتاج مواشيهم أو هلاكها، فيقل الإخصاب سنتهم تلك، ويزداد الإسقاط، فيجف الضرع من قلة الكلأ، وتكثر العلل بين قطعانهم من السقم، ويُنقِصُها النفوق، مما يلحق بهم بؤس الحياة وشظف العيش، فتعضهم تلك القسوة بنابها، وتجرعهم بضراوةٍ مرارةَ صابِها، ومع ذاك اتخذوها تاريخا يذكرونها ولا يستعيدونها.

فقد أرخوا بالجوائح تحل بمواشيهم مثل "الكساح" ويلفظونه "الكوساح" وهو داء الحطام، يصيب قوائم الماشية فيجعلها لا تتمالك عليها وتقضي وقتها وهي رابضة، وكانوا يداوونه بإنفاذ دخان نبت "الحرمل" في مهاجع القطعان وعزل المصاب منها عما لم يصب بالداء لعدم انتقال الوباء بالعدوى، و"الرمي" وهو إسقاط المواليد قبل تمامها بسبب الهزال، و"الجعام" وهو علة تصيب أحشاء الماشية إذا رعت نبتا لم تعتده فتنـزف الدم من أنوفها، ودواءها النـزوح عن المرعى الموبوء، و"الروجة" وهي مرض يضعف قوى الماشية فيؤخرون المصابة عن القطيع ريثما تصح، و"الرَّفقة" وهو داء يصيب ضروع الماشية فيجعلها قاسية ويختلط حليبها بدم بسبب رعيها النبات "الرجعي" وهو الذي ينبت في غير موسمه، و"الجدرة" وهي بثور تنتشر في جلود المواشي وأكثر ما تستبان في معاطنها حيث تقل كثافة الشعر والصوف، ودواؤه "القطران"، و"الغَرَب" وهو قروح نازفة تنـزع شعر وجوه الماشية ويتراكم نزفها

بسماكة فيجعلها تستمرئ الحك، ودواءه إزالة حراشف "الغرب" بحكه بالحجارة الخشنة وطلائه.

ومثلما أرخوا بمنازلهم مع قرينة مواقع مشاتيهم ومرابعهم ومصايفهم، وبموارد الماء، وبأهل جوارهم، وبمن نزل عليهم، وبحلول ضيوفهم، وبأسفارهم، وببيعهم وشرائهم، وبالوقائع ذات الوقع في حياتهم كالزواج والولادة والختان، والوفاة والنِّفار والشِّجار، وبفلج خصومهم في مقاضاتهم إياهم، وبإصلاح ذات بينهم، كذلك أرخوا بالأمراض التي تعتريهم وجدوا في التداوي من أعراضها.

التداوي

﴿٢٢﴾

سنين الجدب ومواسم القحط تورث العلل والأسقام، فاختلاف الأنواء وقلة الأمطار مدعاة لتكاثر الهوام التي تبعث على انتشار الأمراض مما يوجب التداوي للتخلص من آثارها ودفع أضرارها، فتداوى أهل البادية بما تنبت الأرض، وبما جادت به عليهم الطبيعة مما عدوه دواءً، فتمرسوا بالاستطباب بها، تقودهم إلى ذلك شدة الحاجة، ويقوي علمهم بها تكرار التجربة التي أفضت لديهم حذقا في "الحكمة"، وهي كلمة يطلقونها على طب الأبدان، بعدما عرفوا العلة التي توجب الدواء، والدواء الذي يوافي شفاء الداء، وأكثر تداويهم بالأعشاب مما تنبت الأرض التي يصيبهم بها المرض، ففي كل أرض دواء أدوائها، وشفاء أسقامها التي درجوا على استعمالها بتيقن، وأطلقوا على من يداوي المرضى "حكيما".

وإن كان أغلب أهل البادية على معرفة بأسماء الأعشاب التي يستطبون بها في أمراضهم، وطرق استخدامها، إلا أن منهم من برع في مداواة الأمراض التي لم يتوصل الكل إلى أسبابها، فجهلوا دواءها لما غابت عنهم بواعثها، ليجدوا في طلب "الحكيم" الذي اشتهر بكشف العلل في أصولها، ووصف الأدوية الناجعة لها ليستل بالدواء داءها، أو طلبوا "المجارحي" وهو من علم بمعاينة الجروح وفتقها ونقب أذاها وتضميدها ومواكبة تطبيبها حتى برئها، أو سعوا إلى "المجابري" وهو الذي أتقن جبر الكسور وتثبيت أجزاءها باستخدام "الجبائر"، وهي رقائق من الخشب تحيط بموضع

الكسر وتشد بالخيوط إلى العضو المصاب كي يستقر العظم المكسور إلى حين جبره، وربما استخدم ما استرق واستقام من العظام "جبائر"، وفيما عدا ذلك سهل عليهم وصف الدواء لكل داء.

فقد داووا الأسقام التي تحل في أبدانهم من أثر البرد بمغلي "الشيح" و"القيصوم" وهما نبتان صحراويان متشابها شكل الشجيرة ومتماثلا الاستخدام، فإن شرب المريض ماءهما المغلي على شدة مرارته واستدفأ لم يطل سقمه، أو استفوا أوراق "البعيثران"، وهو نبت يلتهمون أوراقه وبذوره التي يستخلصونها من شجيراته الصحراوية ويستقون عليها الماء لتبعث العرق في أجسامهم مع الإستدفاء ليذهب سقمهم، أو ابتلعوا شيئا من "المروحة" بإمالة الميم وسكون الواو وفتح الحاء، والبعض يسميها "وشقة" بفتح جميع حروفها والوقوف على التاء المربوطة في كلا الكلمتين هاءً، ولفظ القاف في الثانية باللين، وهي مادة شديدة اللزوجة تستخلص من جذوع نوع من الأشجار، حادة الطعم نافذة الرائحة، أو شربوها "مدافة"، أي مذابة في سائل لسرعة أثرها في استخراج أسقام البدن مع العرق الذي يستجد بكثافة من الجسد من أثر حرارة الدواء مع دفء الغطاء، واستخدموا مذاب "السمن" الدافئ يسجرونه في حلق من أفقدته شدة البرد حيويته ليستعيد عافيته، وداووا اللديغ بفصد موضع اللدغة لنـزف السم مع الدم المراق، وباستقاء الحليب كي يستفرغ ما نفذ إلى جسمه من السموم.

وعالجوا بعض علل الجوف وآلام الأعضاء من ظاهر الجسد، بفصد العروق من بعض مواضع الجسم لإراقة الدم الفاسد الذي يسبب العلة، أو بالكي بواسطة "القدحة" التي تستحضر من نبتة بعينها، تؤخذ فروعها اللينة وقت طلقها وتدق بعد شويها بملة النار حتى تتجانس، فتصبح لينة متماسكة تسري فيها النار وئيدا فتمس بحرارتها الجلد في موضع الكي على مهل فتحدث حرقا جافا في المكان يلينونه بالسبائخ ليندفع من خلاله الصديد الذي يتكون من أثر الكي نازفا الأذى خارج الجسم، كما عالجوا القروح النازفة برقائق "السبخة" ويسمونها "العريكة" وتلفظ الكاف جيما مفخمة، وهي عجينة من الدقيق يحمونها بالسمن على النار دون حد النضج ويربطونها على موضع القرح وحرارتها يطيقها الجسم لتمتص الخرَّاج، واستخدموا "العريكة" كذلك لمداواة "النفط"، وهو الأورام المحتقنة التي تعتمل بين الجلد واللحم، لتعمل على مسها بحرارتها وتليين قوامها مع تكرار الاستشفاء لتنفجر وتخرج داءها.

واستفوا "السفوف" ولفظوا الكلمة بتشديد السين مع الكسر، وهو خليط من مساحيق العديد من الأدوية، قوامه "السنمكة" وتلفظ بإبدال الكاف جيما مفخمة، وهو ورق نبت، و"الزنجبيل"، يستحضرونها دواء لعلل الصدر والجوف، يخففون حدة طعمها بإضافة بعضا من المواد مستساغة الطعم، يلتهمونها ويجرعون وراءها الماء ليسهل ابتلاعها، واستنشقوا "السعوط" لأوجاع الرأس، ويسمونه "النشوق"، ويستحضر من مسحوق "الخولجان"، وهو جذور نبت، حار الأثر عند الشم، يجعلون قليلا من مسحوقه الدقيق بين إصبعين ويقربونهما من عروة المنخر مع إغلاق الشق

الثاني من الأنف ويستنشقونه بقوة ليذهب إلىٰ أقصىٰ الأنف فيثير الخياشيم التي تتهيج فتدفع الاحتقان ليذهب ما يعتريهم من ألم كان يتشعب في الرأس، وتخلصوا من ألم الرأس كذلك بواسطة "العصابة" وهي شريط من القماش تربط عند مؤخرة الجمجمة بعد إحاطتها بالجبهة والفودين.

وداووا "الحُمرة"، وهي "الحصبة" بالإكثار من أكل الحلوىٰ كي تعجل بحرارتها نثر البثور لتطفح علىٰ الجسد وتطفأ، ومنع المريض من أكل اللبن الذي يؤخر ببرودته وحموضته طفح الداء مما يؤخر برءه، ويعزلون المصاب عن أقرانه الذين لم تسبق إصابتهم بهذا الداء كي لا ينتقل المرض إليهم بالعدوىٰ، علىٰ أنه في بعض الأحيان كانوا يخالطون الأطفال المصابين مع الأصحاء ليأخذوا المرض الذي لا تتكرر الإصابة به، وأما "الشرية"، ولفظها بالشين المشددة مع الفتح وسكون الراء والوقوف علىٰ التاء المربوطة هاء، وهي احمرار شديد يطفح علىٰ كافة جلد البدن مع حكة تؤدي إلىٰ تقرح الجسم فقد عالجوها باللون الأحمر، فإما عملوا علىٰ طلاء سائر الجسد بصباغ "المغرة"، أو ألبسوا المصاب ثوبا أحمر لتهدأ "الشرية".

واتخذوا "الكحل" زينة للعين ودواءً لها، يُذهب عُوارها ويصفي ماءها ويجلو بصرها، و"الكحل" هو مسحوق حجر الأثمد، يستدام سحقه مع ترطيبه بقليل من الماء بين فينة وأخرىٰ حتىٰ يصبح دقيقا، ثم يندف، أي ينخل بغشاء رقيق كي لا يؤذي العين ما استخشن منه، ويكتحل به بواسطة "الميل"، وهو "المرود" ويتخذ من أعواد الشجر، يحسم حتىٰ يتساوق قوامه، وتشذب أطرافه، ويبلل بالريق ثم يغمس في

"المكحلة"، وهي أداة صغيرة تتخذ من الجلد لحفظ "الكحل"، ويمرر "الميل" باستدارة ذهابا وجيئة بين الجفون ليعلق ما فيه من "الكحل" بحِجْر العين بأثر رطوبتها، فيدعج الأشفار من أول الموق ويمتد مع الحقيم ويجلو شحمتها فتبدو صافية لا يخالطها ما يشوبها(١)، وأضافوا إلى "الكحل" مساحيق أخرى شبيهة به واستخدموها "ذرورا" لأدواء العيون، يذرون "قبصة" ما بين إصبعين في العين بتفريق ذراته في محجرها بعد التفريج ما بين الجفون، وداووا العين "الرمداء" التي تنتفخ من العُوار الذي يقع بها "بسلخ" جلد الأفعى، فأكثر ما يكون "الرمد" أيام الحر، وهو موعد سلخ الأفاعي لأثوابها فيمسحون بها وهي لينة ظاهر عيون "الأرمد" ليزول الانتفاخ والألم، وربما استخدموها لاستجلاء النظر.

واعتقدوا شفاء من ظنوا به أثر "المس" باستحضار "الفقير" أو زيارة "الفقيرة"، وكلاهما اسم يطلق على أصحاب الطرق الروحانية التي تتحدر إليهم إما سلالة أو إتباعا، يُخرج "الفقير" من "الممسوس" ما يعتري النفس بالأدعية، ويعالج ما يلازم الأعضاء من آثار "المس" بواسطة "المسدة"، واللفظ بفتح الميم والدال وسكون الوسط والوقوف على الآخر هاءً، وهي دهن يستحضره صاحب الطريقة، "يمسد" به صاحب العلة، أي يدهن العضو المصاب أو سائر الجسد لتخليص الجسم من الأذى الذي اعتراه من أثر "المس".

---

(١) أشفار العين: أطراف الجفون حيث منبت الرموش، والموق: طرف العين مما يلي الأنف، والحقيم: طرفها مما يلي الصدغ، والدعج: سواد يحيط بأطراف الجفون خلقة من تمام الحسن، فترى العين كحلاء وهي ليست كحيلة، وشحمة العين: قوامها.

وحرَّزوا صغارهم ممن يخشون عليهم إصابة العين حيث تضطرب النفس ويسقم الجسم بتعليق "خرزة" زرقاء بين عيونهم لتصد عنهم الأذىٰ، أو "تميمة" وجمعها "تمائم" وهي تعويذة تتخذ حرزا لدرء العين، يجعلونها علىٰ أكتاف أو صدور صغارهم، أو جعلوها في أطرف "لفعانهم" أو في منتصف "أقمطتهم" و"اللفاع" كساء يلف به الطفل منذ ولادته حتىٰ يشتد جسمه، و"القماط" رباط رقيق عريض يكون من القماش أو علىٰ شكل "سفيفة" تنسج من غزل الصوف تشد حول "اللفاع" منتصفها علىٰ صدر الوليد وتتعاقب أطرافها مرات حول سائر البدن ليتم ربطها عند القدمين، وعالجوا من وقع عليه أثر العين بنثر "البخور"، وهو نوع من الطيب يستحلب من بعض الأشجار، تذكو رائحته بالنار، يذرون فتيته علىٰ جمر في إناء فوقه قطعة تحترق من "علق" أي لباس من يعتقدون منه إصابة العين، ليمتزج دخان قطعة القماش مع دخان "البخور" فيكب المصاب عليه ليعم جميع أجزاء جسمه ليخرج منه الحسد الذي أصابه، فتطيب نفسه ويصح جسمه.

وتحاشوا الأوبئة بالتجافي عن الوخم الذي يسببها في الأمكنة التي تكثر فيها، فأقصوا منازلهم عن الأرض البخراء، عفنة التربة، وتجنبوا أرض السباخ ذات الرطوبة والملوحة، واتقوا العلل والأمراض من فعل عوارض الأنواء باللباس الذي يقي أجسادهم القر والحر.

اللباس

﴿٢٣﴾

اللباس حشمة للجسد، وستر للعورة، ودثار من عوارض الأنواء يحميه مما تأتي به من أسقام، فقسوة الشتاء وعصف لياليه، وضراوة الصيف وحدة هجيره تبعثان على وهن الأجسام، فالبرد يسري إلى العصب فيضعفه، والحر يسطو على العظم فيوهنه، وكلاهما ينهكان القوام، ويضعفان العزم، ويلحقان الأذى بالجسم، فتدثروا بما يقيهم زمهرير البرد، ويصد عنهم حرارة الشمس، فلا يكاد يختلف لباس أهل البادية أيام الشتاء عنه أيام القيظ، لمقولة على ألسنتهم مفادها (أن ما يقي من البرد يقي من الحر).

ويأتي لباس أهل البادية وفق أعرافهم التي تفرض عليهم الاحتشام، لصيانة النفس بعد صيانة الجسد، بما يزيد في الهيبة، ويجلل الوقار، وينفي التهم، ويدفع الشبهات، فرسخ فيهم قيما لا يخالفونها، واستقر في طبائعهم عوائد لا يحيدون عنها، وانتقل عرفا مترافقا مع باقي ما هم عليه من تقاليد، لتكون هيئاتهم في لباسهم جزءا من وقارهم الذي يسعون إلى الحفاظ عليه، ويحرصون على عدم ثلمه، بل عابوا على من يستخف به، وثنوا من يتمادى في محاولة الظهور بما لا يليق، فاللباس وإن كان مواراة للجسد، ووسيلة للاتقاء، فهو أمر لا يتعلق بشخص لوحده وفق هواه، بل يتعداه إلى من حوله، فيوحي بما يرفع من القدر، أو يحط من الشأن.

يرتدي الرجل ثلاثة أثواب، أولاها ثوب "الشعار" وهو الذي يلي البدن، وغالبا ما يكون أبيض وقلما يكون مصبوغا إلا بالزعفران، وهو صباغ وطيب في آن، وثوب البدن رقيق ولين، لا يؤذي الجسد بخشونته، ويمتص العرق لليونته، وهذا الثوب يوارىٰ الرجل في بيته ولا يظهر به، ويليه ثوب "الرفال" وهو ثوب شبيه بالأول إلا أنه أخشن قليلا ولا يتحرج المرء من الظهور به في بيته غير أنه لا يخرج به علىٰ الناس، ومن فوق ثوبي "الشعار" و"الرِّفال" ثوب "الدثار" وهو ثوب الزينة، وغالبا ما يكون غليظا، ليقي الجسم زمهرير البرد وسطوة الشمس، وداكنا ليضفي المهابة والاحتشام، ويكون علىٰ هيئة الثوبين اللذين تحته، مغلق مقبل البدن إلا من فتحة تجتمع بأزرة عند الصدر، تثبت في الجانب الأيمن بعرىٰ تقابلها في الجانب الأيسر، تمتد من "القبة"، وتلفظ بالقاف اللينة، وهي ما يحيط بالعنق، إلىٰ منتصف البطن، وتسمىٰ "الزيق" وتلفظ بالزاي المشددة مع الكسر وإبدال القاف جيما مغلظة، أو يكون الثوب علىٰ هيئة رداء "مفجوج"، أي مفتوح من أول العنق إلىٰ آخر "الشليل"، وهو طرف الرداء أو الثوب مما يلي القدمين، ولفظها بالشين المشددة مع الكسر، فيما يطلق علىٰ طرف "السروال" حيث يحيط بأسفل الساق "حجل" وأعلاه حيث يجتمع علىٰ الوسط "دكة" بكسر الدال وإبدال الكاف جيما مفخمة، ويسمىٰ الرداء علىٰ هذه الهيئة "مزنوك"، أو "كبر"، وتلفظ الكاف جيما مفخمة، ويرتديه المسنون، يطوىٰ طرفاه علىٰ البطن ويثبتان بعقد رباطين من ذات القماش أو من خيوط ناعمة ملساء يسمىٰ الواحد منها "قيطان" بالقاف اللينة وجمعها "قياطين"، يرسل أحدهما من الطرف الأيسر الذي

يشتمل على الطرف الأيمن، والآخر يلتقيه من قرب الخاصرة اليمنى، فيما يلتقي طرفا "القبة" حول العنق بعروة وزرار.

وينتطق الرجل على وسطه فوق أثوابه بحزام من الجلد تتصالب معه "الشبرية" على أحد جانبي الخصر، وهي مدية بأحجام مختلفة، طرف نصلها الحاد المصنوع من المعدن الصلب مجوف قليلا إلى الداخل، والطرف الآخر محدودب إلى الخارج بما يتلاءم مع شكل الغمد الذي تثبته عروة من بدنه في الحزام، فيتوافق مقبضها الفضي مع غمدها المماثل بالوشي التي تزينها بالأحبار وخيوط الفضة المجدولة، ويرصع ظاهرها بشذور الخرز ذات الألوان، ويتجند "الصفن"، وهو على شكل حقيبة صغيرة تتعلق من أعلى طرفيها العلويين بسير من الجلد، يكون منتصفه على الكتف الأيمن ويرسل طرفاه إلى الجهة المقابلة، أحدهما يتقاطع مع الصدر والآخر مع الظهر ليستقر "الصفن" على الورك الأيسر بأدواته التي لا تكاد تخلو منه، إذ غالبا ما يحتوي على "المزيان" وهو موس حاد يستخدم لحلق الذقن وحف الشارب، و"المقراط"، وأصله "المقراض" فأبدلوا الضاد طاء في اللفظ ربما لقرب مخرجيهما، وهو مقص صغير يستعمل لتشذيب شعر الوجه وتقليم الأظافر، و"المقباص" ملقط صغير لالتقاط الشعر، إضافة إلى "القدحة" و"السعوط" و"المروحة" للتداوي، كما لا يكاد يخلو "الصفن" من "الزناد"، ولفظه بهمزة مفتوحة قبل الزاي المشددة بسكون، وهو قطعة من المعدن الذي يحدث الشرر إذا ما قدح بحجر "الصوان" مع تقريب قطعة من "القدحة" من موضع الاحتكاك، فيدام النفخ عليها متى علق بها الشرر لتتمكن منها النار لإذكاء الهشيم تحت الحطب ليسري فيه اللهب، ثم يرتدي "الدامر"

وهو كساء غليظ، له بطانة رقيقة، يغطي النصف الأعلى من البدن، ويختلف بلونه الداكن عن "الدامر" الذي ترتديه المرأة.

ويعتمر من هم في مقتبل العمر "الشماغ" الأحمر، ويلفظونه بإبدال الغين خاءً، وأظنه الأصل لموافقة المعنى، لأنه لا يرتديه إلزاما إلا من تجاوز حد الصبا فقارب شموخ الرجولة، و"الشماغ" منديل مربع الشكل، ينسج من الخيوط البيضاء الرقيقة، يغلب على بياضه تطريز باللون الأحمر، تطابق إحدى زاويتيه بالتي تقابلها لتكونا على الظهر عند اعتماره، ووسطه يوافق مفرق الرأس، فيما يسترسل طرفاه الآخران إلى الصدر، ويسمون الواحد منهما "جناحا"، ويتخذونهما "لثاما" يغطي بعض الوجه إما لاتقاء وهج الحر أو قرس البرد، وإما لإخفاء السحنة، ويلفظون "اللثام" بإبدال الثاء صادا، فإذا اكتهلوا تحولوا إلى "الشماغ" الأزرق، وهو ذات سابقه إلا أن تطريزه بالخيوط السوداء وأقل كثافة، وتحولوا بالاسم من الأسود إلى الأزرق تحاشيا لذكر السواد تجنبا للتشاؤم، فإن شاخوا اعتمروا "القضاضة"، وهي منديل أبيض رقيق بحجم "الشماغ" لا تتخللها الألوان، إلا أنها قد توشى بالتطريز من لون خيط نسيجها، ويجعل فوق عمارة الرأس "العقال"، ويقال له "المرير"، لأنه كان يتخذ من غزل أوبار الإبل "الممرورة"، أي التي يتم فتلها لتزداد قوة وتماسكا، بما يماثل "عقال" الجمل الذي يثبت الساق بالذراع ويطلق عليه نفس الاسم، كان يربط "المرير" حول الرأس فوق العمارة لتثبيتها، أو أن يعقد طرفاه ثم يثنى ليشكل طبقتين فوق العمارة قبل أن صار يكسى ظاهره بخيوط "المرعز" الأسود التي يتخذونها من شعور الماعز الدقيقة.

ومن بعد تجلل "العباءة" كامل اللباس، وهي رداء فضفاض يشتمل بها الرجل، منها ما يواتي أيام القيظ برقة خيوطها، ومنها ما يوافق وقت الشتاء بغلظة نسيجها، توشى حواشيها من جهة الصدر والعنق بالقصب المذهب، وترسل خيوط دقيقة من الوشي مع طول "الأردان"، وهي مواضع إدخال اليدين، وحول "الأكمام" منتهى الأردان، والعباءة وإن كانت زيادة في التجمل في اللباس، إلا أنها ترتدى زيادة في الاحتشام والوقار، فمتى أقبل الرجل على قوم، كان إقباله من حيث اتجاه البيوت، جمع طرفيها إلى وسطه وأمسك بهما كي لا يسترسلا مع الريح فيضرب الهواء لباسه لتظهر أشلاء جسده، ومن أقبل بلا عباءة أمسك طرف ثوب "الدثار" بإحدى يديه وجذبه جانبا كي لا يطاوع الريح، ويستعين الرجل على حمل بعض حاجياته في "ضبن"، أي طرف "العباءة" الأسفل من أحد جانبيها ويجعله على كاهله.

وإذا حزَّ البرد، وَقَتْهُم "الفروة" الزمهرير، وهي كساء يتخذ من جلود صغار "البهم"، لخفتها عند الاشتمال بها، ذات الصوف "الغلاسي"، وهو الصوف المتلوي الذي لم يسترسل، فهو أجود وأثبت في الجلد من صوف المسان من الضأن الذي ينسل بسهولة، يعمل "الفَرَّاء"، وهو صانع "الفِراء" على "برش" الجلود، أي تنظيفها مما يعلق بها من الدهن من قوام بدن الذبيحة أثناء السلخ، وتليين ظاهرها بالكشط بأداة حادة بعد إشباعها بالملح لتدوم، و"ندف" أصوافها لتخليصها من الشوائب وإكسابها تجانسا، ثم يجري توصيلها ببعضها على الهيئة التي تناسب الجسم، ويجعلون لها كسوة من القماش الغليظ يسمونها "قباب"، ولفظها بهمزة ممالة قبل القاف الساكنة، وقليلا ما تلفظ على الإفراد "قبة"، وتزين "القباب" بخيوط "القياطين" التي يطلقون عليها

اسم "خرج" بفتح فسكون، ولكل "فروة" اسمها تبعا لحجمها، فمنها "البجدلية"، نسبة إلى المكان الذي اشتهر بصناعة "الفراء" قبل اتساع الصنعة، وهو ضيعة من أرحاء الشام تعرف بالبحدلية، لفظها بالحاء المهملة بدلا من الجيم المعجمة، وتلفظ الجيم أقرب إلى القاف اللينة، ويطلقون على تلك "الفراء" اسم "الخيالية" أيضا، وهي "فروة" تغطي معظم الجسد، ولها أردان طويلة ليست بقصد الاشتمال، معظمها يمتد من "القباب" دون فرو الجلود، و"العبوية" أو "العباوية" وهي أقصر طولا من "البجدلية" وأردانها أقل استرسالا وربما علتها "عباءة" غليظة منسوجة من الوبر، و"الرعاوية" وحجمها يوافي كامل الجسد، وهي دثار الرعاة، يستخدمونها فراشا وغطاءً عند النوم في الخلاء، بعد أن يتخذوا رصيفا من الحجارة يجللونه بالأعشاب ثم يفترشون أحد شقي "الفروة" ويتدثرون بالشق الآخر بعد نزع "القباب" ليسح ماء المطر عن الجلد متخللا الأعشاب ليسيل من بين الحجارة، أما "الجدعية" أو "النصية" فتغطي النصف الأعلى من الجسد وتسترسل منها أردان يشتمل بها، وترتديها النساء كما "القطشية" أو "الإبطية" التي تخلو من الأكمام.

وثوب "الدثار" عند المرأة "الشرش"، ولفظة بتشديد الشين الأولى مع الكسر بلهجة أهل البادية، وهو ثوب معتدل مع قوام الجسم، يخاط من القماش الأسود، "زيقه" منفرج يستره "الملفع"، وهو قطعة من القماش الرقيق الذي لا يشف، يتخذ بعرض ذراع، وطوله قريبا من ثلاثة أذرع، يوصل ما بين طرفي طوله بالخياط، تَدَّرِعُه المرأة في عنقها مرسلة طوله على المتن تحت الثوب، وجاعلة إحدى حافتي عرضه عند اللحيين لتطوي طرفه الأيمن على رأسها من جهة الصدغ ثم طرفه الأيسر فوق الطرف

الأيمن ليغطي كامل رأسها مشتملا على ضفائرها، وتغطي بقيته من الأمام الصدر، ويسمى "النقيبة" أو "المنقب"، ويتم تثبيت "الملفع" على الرأس بواسطة "الطفخة" ولفظها بالطاء المشددة مع الكسر مع سكون الفاء وفتح الخاء والوقوف على التاء المربوطة هاء، أو بواسطة "المعصب"، و"الطفخة" منديل مربع الشكل، يطوى للداخل ليكون على شكل مثلث، ثم يطوى من جهة طوله عدة طيات متناسقة يكون ظاهرها للخارج على الرأس ويربط للخلف، و"المعصب" بكسر اللام وسكون العين وفتح الصاد قطعة من القماش الأسود الرقيق ذات طول، تطوى لتكون بعرض ثابت لتشكل على رأس المرأة كما "الطفخة" إلا أن أجنحة "المعصب" أكثر طولا بحيث تسترسل إلى الخلف مع أكثر طول البدن، ونطاق المرأة "الشويحية"، ولفظها على صيغة التصغير بهمزة ممالة قبل الشين الساكنة، وهي وشاح من النسيج الموشى يلتف على وسطها ويرسل طرفاه إلى أحد الجانبين.

ترتدي الشابات من النساء "الشرش" مطرزا بالخيوط ذات الألوان الزاهية، وقلما يعتصبن "المعصب"، ويقتصر لباس رؤوسهن على "الطفخة" التي يكون منديلها رقيقا موشى دون أن يؤخذ عليهن في ذلك، فيما تجلُّ الكبار من النساء عن ارتداء ما لا يليق بسنهن، ويخترن من ألوان الثياب وكثافة القماش عند الاكتساء ما يتناسب مع أعمارهن فيوحي بالرزانة والوقار.

ويختار أهل البادية أكسيتهم بعناية، بما يتوافق مع أعرافهم، فلا يبتذلون في أرديتهم ما استطاعوا، ولا يغالون في لباسهم وإن قدروا، وحسبهم ما وارىٰ الجسد وكف الأذىٰ، ويكفيهم ما جنبهم استخفاف الحمقىٰ، ودفع عنهم ازدراء الرعناء.

المؤونة والكسوة

﴿٢٤﴾

عادة ما تندفع منازل أهل البادية في الأقاصي، ويصير من الصعب ترددهم على الأسواق عند كل حاجة تعترضهم، مما اضطرهم إلى التزود بالمؤونة والكسوة في أوقات متباعدة يحضرون فيها إلى المدائن لقضاء حوائجهم، إذ تأتي بهم المواسم من حين إلى آخر، وفي أوقات لا تتكرر كثيرا خلال العام، الأمر الذي فرض عليهم تفقد حاجات بيوتهم وابتياعها فوق حد كفايتهم، احترازا من النقصان قبل الوقت الذي يتوقعون معه العودة إلى المدينة التي إن جاءوها نزل كل عند "العميل" الذي يتعامل معه، وهو اسم أطلقوه على التاجر الذي يبيعون إليه ويبتاعون منه، فيرسلون إليه بنتاج مواسمهم، ويأخذون من عنده حاجات بيوتهم، من المؤونة والكسوة، إما مقايضة، أو بيعا وشراء، أو "دينا" وفاءه في موسم النتاج، وقد يلجأ المعسرون من أهل البادية إلى الموسرين من عملائهم من أهل الحاضرة لأخذ "الطلاع"، وهو اقتراض لأجل يتفق الطرفان على موعد وفائه، وعادة ما يكون موسم الفطام، وعلى نوع ومقدار السداد والذي في الغالب يكون عينا، ومن بعد قضاء حوائجهم يقفلون بحمولهم على ظهور "الزمل" وهي الإبل يحملون على ظهورها.

فأول ما يكتالون الحبوب مؤونة لهم، وأعلافا لمواشيهم، يأخذون ما يوافق حاجتهم من المؤونة ويخزنون ما لا يستطيعون حمله إما عند "عملائهم" أو عند أصدقائهم من أهل الحضر، لقربها من مواقع طحن وجرش الحبوب، ويخزنون أعلاف

المواشي في "الخراب"، ويلفظون ألف الوصل همزة قطع بعدها لام وخاء ساكنتان، مفردها "خربة" بفتح فسكون ثم فتح ووقف، وهي مواقع يطلقون عليها أيضا اسم "الديرة"، يؤوبون إليها شتاء ويمكثون فيها ما دام الكلأ في حزومها والماء في بركها ومطوخها(١)، وأخذت اسمها من عدم عمارتهم قصبتها، حتى أنهم عند عودتهم إليها ليستغلوا "المغر" بإمالة الميم وسكون الراء، وتعني "المغائر" مفردها "مغارة" وهي الكهوف في السفوح مخازنَ لأمتعتهم وزرائبَ لمواشيهم ينـزلون حولها، ومن معالمها "الصير"، و"الرسوم"، مفردها "رسم" وهي معالم يتخذونها على شكل رجوم من الحجارة على ذرى الروابي يطلقون عليه اسما تشتهر به لاقترانه بحدث، وغالبا ما تكون "الرسوم" قبورا لموتاهم.

ومن قوام مؤونتهم التمور، يشترون "العجوة" بزبيلها(٢) الذي يطلق عليه اسم "شلو" بكسر الشين، أو "خصف" بكسر فسكون، وهو وعاء منسوج من سعف النخل لحفظ محتواه، كما تزودوا بصفائح "الدبس"، ويأتي على ضربين، الأول يستخلص من العنب ويكون لينا وهذا الصنف يخلط بالسمن ويحفظ في "الظروف"، والثاني يصنع من التمور وهو أكثر صلابة ويحفظ بأوعيته، ودخل "القطين" في مؤونتهم، وهو التين المجفف، كما "الزبيب" الذي هو مجفف العنب، وجعلوا أول ما

(١) الحزم: ما يرى من طبقات المرتفعات على شكل خطوط دائرية، وربما قصد به سلاسل التلال التي تحيط بالمكان السهل، والمطخ ورد ذكره في الورود والصدور.

(٢) الزبيل: الوعاء.

يتمونون منه "القهوة" و"البهار"، يشترونها من أجود الأصناف، وبأغلى الأثمان، وبقدر لا يعوزهم إلى حاجتها وإن طالت غيبتهم عن السوق.

ومن أولى حوائجهم "الحبال"، يتخذونها من "المرس" أطنابا لبيوتهم، تشدها بقوة إلى أوتادها ليستقيم بناءُها، يواظبون على تفقدها مع تجديد البيوت مع انطباق كل حول، وقبل إقبال الشتاء من كل عام، فيستبدلون ما بدا فيه التلف بما هو أشد متانة، ليأمنوا صخب ليالي الشتاء، وهوج زعازع الرياح من اقتلاع بيوتهم، ويبتاعون حاجتهم من "الدلاء" و"الأرشية" للاستقاء، و"الروايا" لجلب الماء، وابتاعوا "القراقيع" و"الأجراس" و"النحال" و"البريشمانات" يعلقون في رقاب مواشيهم.

مثلما اشتروا "السروج"، مفردها "سرج"، وهو مركب الفارس على ظهر جواده، يستجاد صنعه من الجلود، يشد على ظهر الفرس بواسطة "البطان"، ويمتد من طرفي جانبيه إلى أسفل بطن الحصان حلقتان يقال لكل منها "ركاب"، ولفظه بهمزة خفيفة قبل الراء الساكنة مع إبدال الكاف جيما غليظة، يستخدم "الركاب" الأيسر لاعتلاء ظهر الفرس بوضع رجل الفارس اليسرى في حلقته ناهضا إلى الأعلى بالاعتماد على "السرج" الذي يتمكن منه بكلتا يديه، حتى إذا استوى على ظهر ركوبته جعل رجله اليمنى في "الركاب" الأيمن ليزداد ثباتا، ويجعل في موضعي القدمين في "الركابين" قطعة من جنس "الركاب" ناتئة تسمى "المهماز"، يجعلها الفارس جهة بدن الفرس ليهمزها به في "مراكلها"، وهما موضعا ركل الفرس وسط وأسفل جانبي بطنها حثا على العدو، فإن خلا "الركاب" من "المهماز" همزها الفارس بعقبي قدميه،

وتغطي قطعة من النسيج اللين بدن الحصان تكون تحت "السرج" تسمى "معرقة" لامتصاص العرق، ويطلقون على غطاء صدره اسم "مرشحة"، ويبتاعون كذلك "أعنة" الخيول، واحدها "عنان" وهي تشبه "أرسان" البهائم من حيث اشتمالها على رأس الدابة، غير أن "الأعنة" للخيل، و"الأزمة" مفردها "زمام" للإبل، و"الأرسان" للبهائم، إضافة إلى أن "العنان" يشتمل على "لجام"، ويسمى "شكيمة"، تعترض فم الفرس ليتمكن الفارس من قياده، واشتروا "القيود" بأقفالها ومفاتيحها، و"القيد" سلسلة من الحديد محكم الحلقات، تقارب بين قائمتي الفرس الأماميتين بواسطة حلقتين تتصلان بالطرفين، تدخلا في رسغيها بفتح قفليهما بمفتاحهما الذي لا يفارق الفارس زيادة في الحرص على فرسه، وليلا يجعل القيد إلى مربط يتخذ من سلسلة حديدية متينة تثبت بوتد راسخ في الأرض قريبا من فارسها.

واشتروا ما ينقصهم من الآنية، وهي الأوعية التي يستخدمونها في إعداد الطعام وتقديمه، من مثل "الطوس" جمع "طاسه"، وهما لفظان لم أعثر لهما على أصل في اللغة يدل على معناهما السائد الذي يقصد به الأوعية التي تستخدم لطهي الطعام، إلا إذا كان اللفظ تصرفا بكلمة "طست" المبدلة سينها الثانية تاءً، وجمعها على القياس "طساس"، فحذفت السين الأولى وألحقت بها تاء التأنيث على أصل المعنى فقالوا "طاسة"، وهي وعاء من النحاس، اسطوانية الشكل ذات عمق، قاعدتها أوسع من فوهتها التي تبرز حوافها للخارج قليلا لسهولة حملها، تركب فوق النار على ثلاث "هوادي" وهن الأثافي، ومثلها "القدور" وتلفظ القاف باللين، في حين مفردها "قدر" يلفظ بقلب القاف جيما مخفوضة، إلا أنها أكبر من "الطوس" وأكثر سعة، مما

أوجب إضافة "الخدم" أو "المخادم" واحدتها "خدمة" وتلفظ بهمزة مخففة قبل الخاء الساكنة، وهي حلقة معدنية تثبت عراها أسفل حواف "القدر"، ومن "القدور" ما يضاف له "خدمتين" متقابلتين ليحمله اثنان، ومنها ما يضاف له أربع "مخادم" بحيث يحمل من قبل أربعة، ومن آنيتهم "المناسف"، مفردها "منسف"، وهو وعاء واسع مستدير ليس ذا عمق بعيد، يستخدم لتقديم الطعام، منه بأربع "مخادم"، وأصغر منه له "خدمتان"، وأصغر من غير "خدم" وغالبا ما يستخدم الأخير للعجن، ويسمى "معجن"، والذي يستخدم للغسيل أسموه "لقن" بقاف لينة، كما اشتروا "الدلال" مفردها "دلة" و"البكارج" واحدها "بكرج" و"الفناجين" واحدها "فنجان" ويبدلون النون الأخيرة لاما.

وينظفون آنيتهم من آثار ما يعلق بها بالماء وقطع النسيج الخشنة، ويتخلصون من زهومة الدهون باستخدام رماد النار، وهو "السكن" ويلفظونه بإبدال الكاف جيما مفخمة، وقد استخدموه لتنظيف الأسنان بدلكها بأحدى السبابتين بعد أن تبلل بالريق ليعلق بها الرماد، وأما الإناء الذي يلغ فيه كلب فقد طهروه بالماء والتراب، وإن خفَّ طلاء أواني النحاس لزمها "الرَّبُّ"، يقوم على ذلك "الرَّبَّاب"، وهو من الصناع الذين يواكبون حاجات أهل البادية.

الصُّنَّاع

﴿٢٥﴾

نَفَرَ أهل البادية من مزاولة الصنائع، وأنفوا من توطين أنفسهم عليها، وتجافوا عن مباشرتها وإن أتقنوها، رغم ضرورة حاجتهم إليها، وشدة سعيهم وراء من يقوم بها، لعدم استقامة حياتهم بدونها، وظلوا يعدون امتهانها مثلبة تنقص من أقدارهم، لا لذاتها، بل لتأففهم من مد أيديهم لعائد جهد يبذلونه، وهم الذين اعتادوا "العونة" دون الأجر الذي اعتبروه امتهانا يلحق الأذى بهم من جهة من يعملون لديه، مسخرين أبدانهم لعمله، وأذهانهم للانصياع له، ولم يعد أهل البادية "الرعي" من الصنائع التي يتجافون عنها لأنها مواكبة لما ألفوا في بيئتهم.

و"الصانع" بعرف أهل البادية، كل من يحترف الصنائع التي يتحاشون هم تعاطيها، لما تفرضه عليهم أعرافهم، ليجدّوا في طلب بعضهم في أماكنهم، ومن "الصناع" من يديم الإقامة مع أهل البادية، يرحلون برحيلهم وينزلون بنزيلهم، ومنهم من يحضرون إليهم بما يتوافق مع أوقات الحاجة التي يعرفون مواعيد مواسمها، مثل "الجبَّان"، وهو اسم غلب على من يصنع الحليب، يلحق بأهل الماشية في مواسم الإدرار، منتحيا في خبائه جانبا من الحي، يأخذ منهم ما زاد عن حاجتهم من حليب مواشيهم، لتصنيعه وتأدية ثمنه إليهم مع تمام الموسم.

فمن "الصناع" الذين يحتاج إليهم أهل البادية، "السائس" ويلفظ بتليين الهمزة ياءً، وهو الذي يروض الأمهار، ويهيئها للركوب، ويحذو الخيول، ويضمر الأفراس وينتجها، و"البيطار" يداوي الدواب من عللها وأمراضها، ويشقصها، أي يَجبُّ ما يريدون جَبَّه من ذكرانها، و"السروجي" صانع سروج الخيل، وأجلة الدواب، وخارز "الدلاء" و"الروايا"، و"الفراء" ويلفظ الاسم بالقصر وبفتح الفاء وتشديد الراء مع الفتح، وهو صانع "الفراء" بكسر الفاء وإفراد الراء المفتوحة، جمع "فروة"، يعمل على صنعها من جلود الخراف الصغيرة، واعتبروا "الدَّواج" من أهل الصنائع، مع أنه يتعاطى التجارة، وأسموه "الديري" لتقصيه "ديار" أي أمكنة الأقوام، يأتيهم بما يلزمهم من حوائج البيوت، والأكسية والأردية والأقمشة، يبتاعون منه ما يوافقهم، ويطلبون منه ما سيحضره لهم.

وأكثر ما أطلق اسم "الصانع" عند أهل البادية على "الحداد" خاصة، وهو الذي يعمل على تصنيع وإصلاح ما يحتاجون إليه من أدوات المعدن، مثل "أعنة" الخيل، وصنع قيودها، وإصلاح أقفالها، ويعمل على "حذو" ما تآكل "حذوه" منها لوقاية حوافرها، مثلما يصنع"قراقيع" الماشية و"أجراسها"، ويعد هياكل "المياسم"، ويحد المِدى، ويشحذ الأمواس، ويجلو صدأها، ويصقلها، ويصرف "المقصات" و"الأجلام" التي يستخدمونها في جز الصوف وقص الشعر، ويطرق الآنية، ويعمل على "ربِّها"، ويطلقون عليه حينها اسم "الرباب" بتشديد الراء والباء مع فتحهما، ولعل منهم من اقتصرت صنعته على هذا.

يعمل "الرباب" علىٰ طلاء الآنية النحاسية، كلما انكشف طلاءها الذي يغطي باطن الأوعية، كي لا يَخِمَ الطعام أو الشراب فيها من أثر صدأ النحاس، الذي يتكون علىٰ شكل طبقة يميل لونها إلىٰ الاخضرار تتكون علىٰ أسطح الأوعية التي تتعرىٰ من الطلاء، فتفسد الطعام والشراب، وتؤدي إلىٰ السقم، وتفضي إلىٰ والهلاك، فيقوم "الرباب" بتغطية النحاس الأصفر بطبقة بيضاء من الطلاء المعدني الذي لا ضرر فيه، ومنه جاء اسمه الرديف "مبيض"، ولفظه بهمزة ممالة قبل الميم الساكنة، يفصل "التبييض" ما بين اصفرار النحاس في آنية الطهي، "الطوس" و"القدور"، أو مواعين تقديم الطعام وحفظه، "المناسف" و"المعاجن"، ومثلها "دلال" القهوة و"البكارج".

يبدأ "الرباب" بتنظيف الآنية من عوالقها، بتعريض جوفها للنار التي يعدها من حطب صلب يطول اتقاده، ويتوهج جمره، غير هش، يتلاشىٰ لهبه سريعا، فتخمد حرارته علىٰ عجل، يديم النفخ عليه بواسطة "الكير"، وهي آلة "الحداد" التي ينفث منها الهواء لإذكاء النار، حتىٰ إذا ارتفعت حرارة الإناء تناوله بمقبض ودلك جوفه بأدوات التنظيف لتنقيته من الشوائب التي تحول دون التقاطه الطلاء، أو تترك فجوات سرعان ما تتسع دائرتها فيعود إلىٰ الماعون فساده، وبعد تيقنه من انجلاء الإناء يتناوله بملقطه عن النار من جديد ليجيل في جوفه الطلاء بسرعة وبواسطة قطعة من الخيش يكون قد غمسها للتو في مادة "التبييض"، التي تدوم ما يقارب ختام الحول.

الخاتمة

لا أستكثر على شرف الكتابة وقتا يطول، بل استهجن سرعة الخوض بها، والانثناء عنها، ولا أبخس الكتابة الجهد المضني، الذي يختلج النفس، فيثقل الصدر، ويصدع أم الرأس، بل ألذ لهواجسها التي تلازم الكاتب، وتخالطه أنفاسه، حتى وهو أبعد ما يكون عن مساورتها، إذ يبقى الفكر متربصا بالجسد، ولو كان يغط في سبات عميق، فتتنازعه الفكرة رؤاه وهو يهيم في ملكوت آخر، وتخامره الكلمة لبه، وإن كان في فج عميق، فيوقظه نزغ حروفها التي لا تهدأ حتى تطمئن أنها استقرت إما على القرطاس أو تلبدت في ثنايا العقل، وكأنها تشفق على صاحبها من عناء مكابدتها في غير وقتها، واستحضارها على غير رغبة منها، لأنها تعلم معاندة الأفكار لمن يحاولها، أو كأني بها هي التي تختلق المعاندة تأديبا لمن يهملها وقت سنوحها.

على مثل هذا أعيش قلق الكتابة، أراوح بين الشعر الذي لا أتخذ عنه بديلا، وبين النثر حين أراه في مواقعه جليلا، فالذي لا يحكمه الشعر لابد أن يحيط به النثر، وما لم يفصحه النثر لا بد وأن يستجلي شوارد معانيه الشعر، فغادرت حومة القريض، في ظلال دومة الخليل، بعد أن عقلت إبله، وقيدت خيوله، ريثما أنتهي من استجلاء كتابي، فأطلقت نوافج ما بين الحيازم إلى فجاج لا ظل فيها ولا شجر، أطوي حزومها في ذاكرة غير بعيدة عن أوابدها، لأضع كتابا يدون ما رسخ في النفس من القيم التي وعيت عليها، وعشت بها، متلمسا معاني بعض الكلمات من معاجم اللغة، ليبدو واضحا أن لغة أهل البادية هي لغة المعاجم، وإن بدلت اللهجات بعض حروفها،

وقلبت غيرها، وهو ما لا يخالف ما استقر لدى أئمة اللغة، الذين أخذوها على أكثر من لسان، وقرأوها على أكثر من وجه، فأنسوا فيها الإبدال، والقلب، والتصحيف، والترخيم، والقصر، والمد، والوقوف، وهي ذاتها الأحوال التي لم يتجاوزها أهل البادية.

ولم أسلك به مسالك الباحثين، التي أجدها أحيانا كثيرة، موغلة في الإطناب حيث يجب الاقتضاب، ممعنة بالإيجاز متى يجب الإسهاب، مكتفية بالتوثيق بعيدا عن التدقيق، مثبتة للزلل بالاعتماد على "المرجع" الذي ربما لا يتواءم مع الواقع، فوقفت عند حد مأثور القول "يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق"، لاعتقادي بأن الإفراط بالزيادة كالتفريط بالنقصان، فأولهما ممل وثانيهما مخل، ولم أشقَّ على القارئ، فقربت معاني ما يستوجب الإيضاح في متن الكتاب دون الحواشي التي لا تتسع للشروح.

وفي تركي لبعض العادات التي قد يفتقدها القارئ، لم أقصد إغفالها لغاية إهمالها، ولم أتجاوزها لأجل تجاهلها، بل ذلك مرده إما لاقتصارها على بعض دون الكل، فيكون الخوض فيها أقرب إلى التقرير منه إلى التذكير، أو لأنني، وبرأيي المتواضع لا أرى افتقادا لقيمة يتوجب ذكرها.

وإذ أقدم "الكتاب"، لا أدعي كمال صنعته، وشمول غايته، ولست أعتبره أكثر من جهد لا يحتمل أكثر من رأي صاحبه، ورأي لا يتجاوز معرفة كاتبه، متسنما عرف قومه، الذي لا يخالف أعراف قوم آخرين في صلبها، وإن حصل ففي أسنافها،

بحيث لا يعد هذا غير ذاك، ومتحدثا بلهجة أهله، التي لا سبيل للحديث بغيرها، ومن الاستحالة مرادفتها بأخواتها اللائي لا حصر لهن.

هذا كتابي، فإن لقي استحسانا فهو الرجاء المبتغى، وإلا فالعذر من التقصير مبسوط، والعفو من أولي الصفح موجود، ولنا أجر المجتهدين، فمن أخطأ فله أجر، ومن أصاب فله أجران، لعل وعسى أن تكون الثانية.

الفهرس

مواضيع المتن